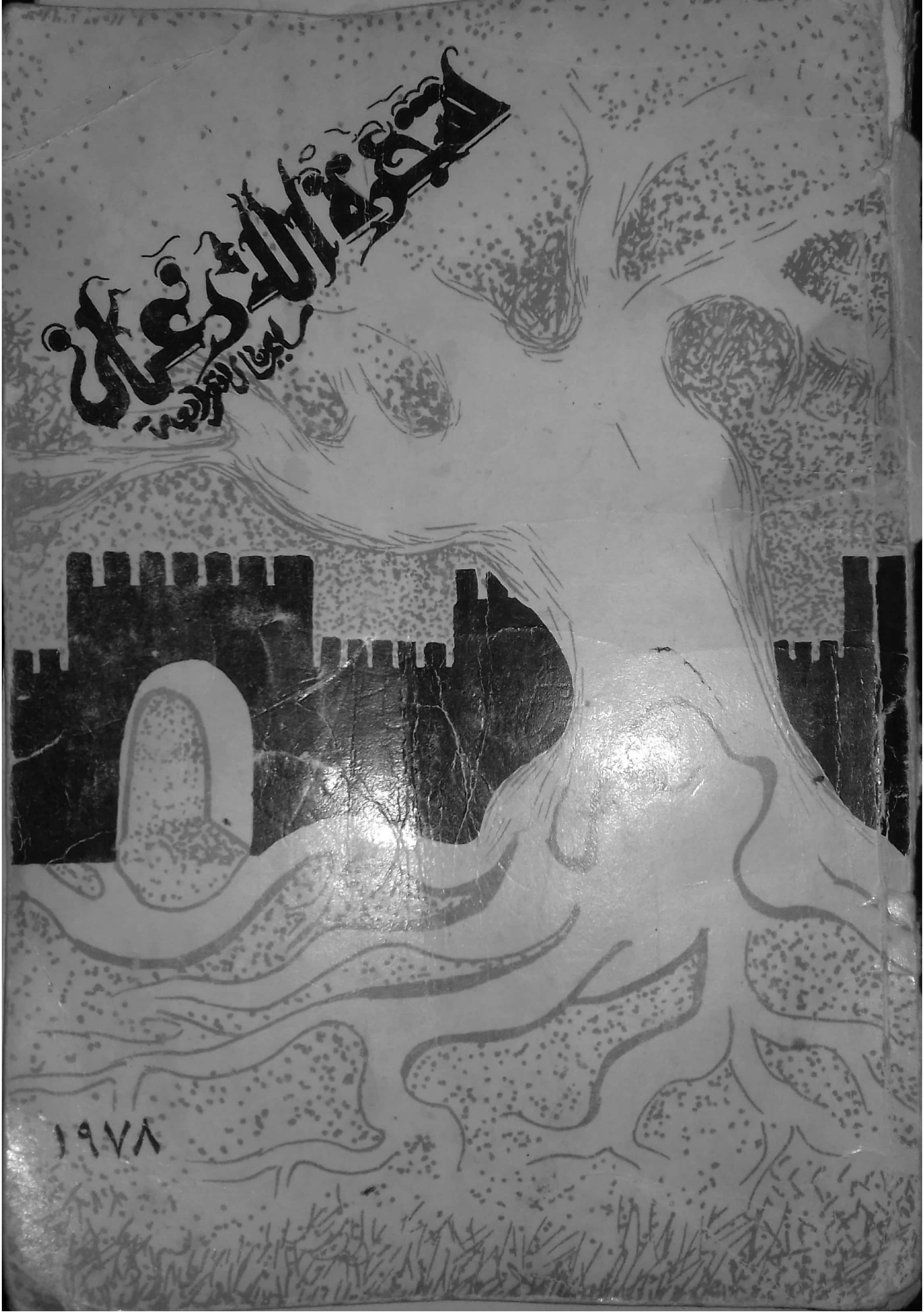

١٩٧٨

[redacted]

... المرشحة للاشتراك في المهرجانات الادبية
...غربية لنيل جائزة القصة لعام ٧٨/١٩٧٩

[redacted]

شجرة الآرغان

سليمان القوابعة

مدرس بمعهد محمد الخامس للتعليم الاصيل

اقليم اغادير

شكيب أريج. تارودانت. 2020

١٩٧٨

الغلاف والاشكال للفنان العراقي :

صالح كريم عباس ـ البصرة

الخطوط للفنان المغربي :

معتصم حميد ـ معهد محمد الخامس

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

عمان ـ هاتف ٣٧٧٧١

Scanné avec CamScanner

الاهــــداء

الى اخواني ، وزملائي في معهد المغفور له محمد الخامس ـ تارودانت ـ اقليم أغادير ، والى جميع معارفنـــا في المغرب العربي الحبيب مع تمنياتي ٠

بين يدي الكتاب

تفضل الأخ الأستاذ سليمان القوابعة فعرض علي قصته (شجرة الأرغان) قبل تقديمها الى المطبعة ، وهي ثقة غالية منه أنا عاجز عن تقديرها .

والأستاذ القوابعة أديب رقيق قبل أن يكون مدرسا يعلم طلابه اللغة والأدب . قدم من بلاد الشام الى المغرب ، واختير له مكان في مدرسة ثانوية ، بواحة كانت الى زمن قريب باب الصحراء الثقافي ، ومنطلق قوافلها التجارية ، ومركز ثقلها السياسي ، ومنبثق الدولة السعدية التي رفعت قيمة المغرب ، في العصور المتأخرة ، الى المستوى الدولي المحترم .

وتارودانت هذه - وهي جزء من سهل سوس اليانع - مدينة صغيرة الحجم ، كبيرة المنزلة ، من أجمل ما رأيت من واحات جمالا وجاذبية ، هادئة ناعمة ، تتسلسل مياهها في غدران تنحدر من مذوب الثلج الجاثم على قمم جبال الاطلس المشمخرة الشامخة ، فتسقي رياضها وبساتينها ، وتحوّم حول سورها الأثري فتجعلها آية من آيات الجمال الطبيعي الخلاب ، قطانها نخبة ممتازة من رجال العلم الديني والتجارة الصحراويـة ومدارسها الابتدائية والثانوية تضيق بطلابها المنحدرين اليها من كل فج للدرس والتعلم والتفقه في اللغة والدين والعلوم العصرية ، وكأنها حركة دائمة كخلية النحل ، كل من فيها يقوم بعمله المكلف به على الوجه الأتم بصمت وايمان .

وحول هذه الواحة السعيدة ، غابات من شجر نادر لا وجود لمثله في الدنيا الا هناك وفي الوجه المقابل له من المحيط الاطلنطي في شرقي البرازيل ، يسمونه في المغرب شجر « الآرغــان « Argane » • تمتد هذه الغابات حول الواحة الى عشــرات الاميال ، وتؤتي أكلها ثمرا يشبه البلوط ، يعتصر منه زيت لذيذ الطعم يقولون انه من أعظم الزيوت ترميما للجسم وتقوية للاعصاب •

في هذا الجو الطبيعي الساحر ، والمجتمع البسيط الطيب عاش الاستاذ القوابعة بضع سنوات ، بين طلاب كالحمائم ، وأساتيذ كالاخوة ، وسكان كالاهل ، لا يشعر ضيفهم الا بانه فرد من أسرتهم • الكرم فيهم طبيعة والمحبة سجية ، والترحيب خلق عاش بينهم محبا محبوبا بآن ، مقدرا محترما لحسن خلقه ، وتفانيه في خدماته ، وعطفه على طلابه •• وآثر أن يخلد تلك العلاقة النبيلة بينه وبينهم فأنشأ هذه القصة لتبقى لهم ذكرى فلا ينسون أخا اديبا رقيق العاطفة ، عالي التهذيب ، جاءهم من الشرق ، من بلاد الشام ، فما أسرع ما تم التفاهم العميق بينه وبينهم ، جدد به أواصر المحبة التاريخية بين البلدين ، ومتن علاقات التعاطف ، ودعم روابط المؤاخاة •

وتارودانت التي أنشأت القصة فيها ومن أجلها ، كأنها قطعة من غوطة دمشق لا يشعر الشامي فيها الا انه انتقل في بلده من جانب الى جانب ، وآوى من ظل الى ظل ، ومن حاشية الى حاشية • وحين أقول « بلاد الشام » لا أقصد سورية الحالية انها جزء سياسي من بر الشام الكبير الذي يبتدىء من سفوح

طوروس شمالا وينتهي عند صحراء النفوذ جنوبا ، كما ينطلق من شطئان البحر المتوسط غربا ليترامى على رمال السماوة التي تفصله عن العراق شرقا أو تصله به · ويدخل فيه سوريا وفلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وسيناء · فهو منطقة عربية واحدة ذات أربع عمالات ، قطانها متشابهون في الاباء ، والكرم والطموح ، والترفع عن الدنايا ، وحب الضيف ، ورقة الشعور والتلطف ، ولذلك فان الشامي لا يشعر بشعور الغربة عن وطنه وهو في بلاد المغرب الاقصى ، وفي تارودانت منه بصورة خاصة · كما لا يشعر المغربي الأصيل بالغربة حين يمر ببر الشام العربي للتشابه القريب بين الشعبين ، ولعل هذا كان من جملة العوامل الفعالة في التقريب ما بين الاستاذ القوابعة وواحة تارودانت ، وكان من نتاج العلاقة الطيبة بينهما هذه القصة الجميلة المؤثرة « شجرة الآرغان » التي استطاع الاستاذ القوابعة أن يتصرف بشخوصها تصرف المصور القدير فأوجدهم على ما رسم لهم ، وساقهم في أحداث القصة كل شخصية منهم الى طيها لترسم ناحية من مجتمع الواحة السعيدة ، وتتعاون جميعها على تصوير المجتمع الآخذ في التطور فوفق توفيقا يحمد عليه · وصاغها بأسلوب سهل مبسط لا ينحدر الى الانحلال ، على أنه قوي متين لا يشينه تقعير ولا تعاظل فهو وسط بينهما من النمط الذي يقال فيه « سهل ممتنع » ·

واذا كان الاسلوب هو شخصية الكاتب نفسه ، تتصور فيه من حيث لا يشعر ، كما يقول الافرنسيون "Le style est L'homme même" فشخصية كاتبنا بسيطة لطيفة غير معقدة ، على أنها شخصية الأبي الواثق من نفسه ،

ومن خلقه ، وقدرته ، تجد ذلك واضحا في سرد الاحداث ، وفي المحاورات ، وفي تصوير خوالج النفس ، ومطامح الآمـــال ومطامعها ، وتنهدات الالم واليأس .. حتى لتكاد تلمس خلجة الضمير ، وتسمع همسة الوجدان في كل شخوصها وكأنهم أمامك أحياء يتحاورون ، ويتهامسون ، ويضحكون ، ويبكون .

وإذا كان لي ما آخذه عليه ، فالتقصير في عرض صورة واضحة عن شجرة الأرغان ، والتعاطف القائم بينها وبين سكان الواحة ، كالتعاطف المتقابل ما بين البدوي وشجرة النخيل في جزيرة العرب ، ولا ننسى ان الرواية انما سميت باسم هذه الشجرة النادرة الغريبة التي لم يسمع المشرقي عنها شيئا ، والتي لا وجود لها الا في الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى ، وفي الجزء الشرقي من بلاد البرازيل في أمريكـــا الجنوبية ، وكلاهما على خط عرض واحد تقريبا .

وفن القصة الطويلة في الأدب العربي الحديث ما زال فنا طفلا لم يكتمل نموه بعد ، ودخول الاستاذ القوابعة في معمعاته بقصته هذه ، دخول الطموح المغامر الواثق من نفسه ، فهل يوفق في الوصول الى هدفه ؟، نسأل الله ذلك ، ونتمنى له النجاح .

الدكتور ممدوح حقي

الرباط

١٩٧٨/٥/٥

- ١ -

... يهز الحاج علال رأسه ،فتنفرج شفتاه عندما يسمع أحاديث سمار الليل عن القرية في ايامها الخوالي التي ما زالت ذكراها تنبثق من اغواره ، بين الحين والحين ، فتزيد وجهه اشراقا ، وروحه هياما ، فكأن الرجل يعيش شبابه العتيق من جديد ، فسماء القرية راقصة نابضة بأقمارها ، ونجومها ، والليل الساجي بأستاره يهيمن على اطراف القرية ، وحنايا سفوحها البعيدة .

تبدو القرية من بعيد هادئة بين القمم والأعراف السامقة ، يانعة رغم الصيف ، فنسائم جزر « الخالدات » من الافق البعيد تسابق غوارب الأمواج وطيور النورس ، وتتركها على رمال الشاطيء الغربي الباقي ، وتيمم الشرق من خلال الفجاج حتى تصل الى ذرى الأطلس الكبير فتلطف الأجواء .. وترتاح النفس .. ويهون كل شيء . كان رجال القرية الطيبون ينشطون في سويعات النهار ، ويتسامرون في لياليهم الصافية الرائقة ، فالعام بأمطاره كان سخيا ، وخيراته وبركاته كثيرة ، فتعلو البسمات فوق الجباه ، ويؤمن الفلاحون بالسواعد والمعاول .

توارت أيام مايو فكأن الخضرة راحت تودع سطوح المنازل وثنايا الحقول .. ولا بد أن يجني الجميع ولا بد أن يحصد الحاج علال ما زرع .

كان يرافقه زوجته مباركة التي يعتبرها ساعده الايمن في رحلة العمر ، ويرافق الزوجين في الصباح الصغيرة رشيدة • ينطلقون مع الصباح •• وصباح القرية عامر بالجلبة ، تختلط فيه الاصوات وكأنها عندما يتنفس الصباح على ميعاد •

يصل الجميع الى الحقول ، فينتشرون ، ويصل الحاج علال مع مجموعته بعد نصف ساعة ، فيقبض على حماره الضخم ويزيل حمله ويربطه بطرف الحقل بغصن شجرة بالقرب من السياج ، ويمد له حبلا طويلا من الليف ، أما البقرة الحلوب فيتركها تتجول بين أطراف الزرع •

تتولى الزوجة تنظيم الامتعة بطريقة ما ، وبعد قليل ينتظم الثلاثة فيبدأون حصاد الشعير ، وبلا انقطاع كان الزوجان يراقبان رشيدة بحنان زائد وهي تعبث عبث الطفولة ، فكأنها تشاركهما أمانيهما واتعابهما ، وكأن كل واحد من الاثنين يريد أن يجذب ذلك الملاك الصغير الى جانبه ليسمع منه أحاديث الطفولة البريئة •

كانت الصغيرة تحصد وتجمع السنابل في كومات صغيرة هندسية لا تعتمد على أساس ، فتثير ضحك من حولها ، ثم تترك هذا العمل الرتيب فجأة لتلاحق الجنادب فتصنع لها حظيرة ، ثم تترك ذلك لتبني لها بيتا من الاغصان والحجارة ، فيزداد ضحك الحاج علال ، وتطمئن نفسه حتى تأتي فترة

الغداء فتتناثر مباركة على صغيراتها ،وكذلك يفعل الحاج ويده قابضة على السنابل ، فتحاول رشيدة ان تمسح آثار عبثها بتراب الحقل الاحمر النظيف .

يجتمع الثلاثة تحت الشجرة التي تعلو الأمتعة ، فهنالك قربة الماء معلقة بأحد الأغصان لتبرد اكثر ، وهنالك الخبز ، واللبن ، والتمر ، فالمائدة جيدة ، وعظيمة تحت تلك الشجرة الوارقة الظلال .

وعندما تقترب رشيدة من الحاج يفاجئها ..

ـ لا تبعدي يا ابنتي ونحن نحصد .

ـ لا يا أبي .. انني أخاف اذا ابتعدت .

ـ ومن أي شيء تخافين يا رشيدة ؟

ـ أخاف يا أبي من فأر الحقل .

ـ هل تخافين منه بالزاف(١) ؟

ـ اية .. وعضني في رجلي .. دروك(٢) يخرج ..

ـ هل رأيت أسنانه ؟

ـ انها كبيرة بحال السكين .. تعطل بالزاف .

---

(١) كثيرا .

(٢) في الحال .

ـ ومن قال لك بأنها مثل السكين يارشيدة ؟

ـ والدي .. وها هي رجلي .. وتشير الطفلة الى قدمها اليمنى .. فيعلو الضحك ، ويستمر وهم يأكلون .

وبعد انتهاء مراسم المائدة ، يرتاح الزوج ، ويتخلل تلك اللحظات شيء من لذة النعاس ، فتهدأ الاعصاب وترتخي ، اما رشيدة فلا تهدأ ، ولا تمل من اللعب ، ولا تخلد الى السكون حتى وهي تتثاءب تحت شجرة السدر الصفراء حيث تجمع التمر المتناثر على الارض .

وعندما تميل الشمس ، ويخف وهج حرارتها اللاذعة ، وتنتهي فترة القيلولة ، يتجه الجميع الى سيقان الشعير بهمة ونشاط ، يجمعونها على شكل كومات مربعة .

كان الحاج علال يتحدث مع زوجته احاديث شتى خلال العمل عن الايام ، وتجارب السنين ، وعن الماضي والحاضر ، وعن رشيدة .. وكان غناءه يتخلل ذلك ..

.. اللايم ، خلي العباد كل واحد في حالو
الشهادة بالله، وبالرسول تكفي مولاها
الداعي بالجهل ، اصغ لهل العلم وما قالوا
الشهادة من غير عمل ليس تكفي مولاها

ثم يصمت الرجل ، ويزيد فيغني بعض الأغاني الدينية التي لا يفصح عنها كثيرا بصوته الهادىء ، فلا يفهمها الا شخصه .

كانت تراود الحاج فكرة هينة لينة ، سمعها من جاره عبد الستار .. يريد ان يبوح بها لزوجته ، ولكنه حاول أن يتركها للعام التالي ، فرشيدة ما زالت في الخامسة من عمرها ، ومباركة التي شاركته الحياة بحلوها ومرها لن تخالفه .

استغرق الحاج في تفكير واسع عميق ، فينسى نفسه ، وكأن تفكيره لم يصل الى قرار ، ويلف المساء الحقول والوهاد باشرعته القادمة المتراقصة من وراء الافق ، فتنبه الزوجة زوجها فموعد الرواح الى القرية بات وشيكا ، ويهتز الرجل فيخرج من صمته ، ويرتد بصره عن حفنات التراب القاني ، وعن سيقان السنابل فينهض من فوره بهمة بعثتها طاقة زائدة من مرقدها ويسرع الى حماره الابيض ، فيفك حبل الليف من بين الاغصان المتدلية المتداخلة ، ويقبل باتجاه الامتعة التي جمعتها مباركة فيضعها على ظهر الأبيض ، ويضيف رشيدة الى تلك الامتعة ثم يضع منجله بحزامه ، ويتجه بحماره نحو البقرة فيسوقها من طرف الحقل نحو ناصية الطريق ، وتلحق مباركة بعد ان بدلت لباسها بالازار ، فيسير الجميع خلف جماعات الفلاحين والرعاه .

يصل الحاج متأخرا الى الدار ، فتنتهي رحلة النهار بعد أن تنقل مباركة الحوائج والامتعة الى الداخل ، وبعد أن يربط الرجل حماره ويضع عنده شيئا من سنابل الشعير ، ثم يدفع البقرة نحو الزريبة ، لا يبقى عنده عمل الا وجبة العشاء ،

والصلاة ثم يذهب ليطرب مع أحاديث الرجال البسطاء ، فيجتمع معهم في الثلث الأول من الليل ، وهم يتحدثون عن أيام الحصاد وقلة الأشواك ، والهشيم في ثنايا الزرع ، وعن جودة الشعير والعدس التي فاقت نظيرتها في العام المنصرم ، وما دام الناتج أصبح جيدا فتنظيف أرض البيادر من الأشواك الحادة ، وعن الحصى ، وأكوام التراب التي تنثرها جرذان الحقول ، شيء لا بد منه .

وتتلاحق الأيام ببساطتها ولذاتها ، والحاج علال وعائلته وفلاحو القرية يذهبون مع الصباح ويؤوبون في المساء حتى ينتهي موسم الجمع ، وتبدأ حياة البيادر التي تجذب أهل الريف من الحقول التي اقفرت فتبعث حياتهم من جديد ، فكومات المحاصيل القبابية المتلاصقة تجعل من ليالي الفلاحين فترات سمر وضجيج ، فالحاج علال يتحدث عن نتاج الكرم ، وجاره الشيخ عبد الستار يتحدث عن موسم جني العسل ، وفلاح ثالث يتساءل عن سعر الزيت هذا العام ، فدوائب الزيتون ممتلئة .. وستمتلىء الجرار .

أما عاشور فلا بد أن يشترك ، يتحدث مع من يتكلم عن كل نتاج ويثرثر ، الا انه لا يتعاطى الكيف(١) في حضرة الحاج علال ، وان كان الكيف في جيوبه أو بتلافيف ثيابه ، وكم كان

---

(١) الحشيش .

الحاج ينفي عنه هذه التهمة المدبرة .. انه رجل يبصق على الكيف ، ويلعنه على الدوام عندما يختلي بالحاج علال ، ويوم أن باع أرضه التي ورثها أقرض الحاج مبلغا من المال فتسرب الى قلب الرجل وسرى في عروقه .

... وكثيرا ما كان يمدح الحاج ، ويجامله على الارض التي لا تخلو من التملق ، وكان عاشور كان يرمي الى شيء بعيد كعادة أهل المجازفة والنفاق . وتطول أماسي الفلاحين ، فلياليهم بين أكوام الغلال والتبن هي اجترار للماضي الذي غابت الامه تماما من أخيلتهم ، وبقيت محاسنه اللذيذة ، انهم يباركون أيام الماضي التي كانت فيها البركات ، وكان فيها المرض قليلا ، وكان فيها .. وكان ، وكان .. رحم الله تلك الايام .

وكما أن كتل القش كانت توشي أرض البيادر بلون أصفر باهت فان الايام المتتابعة جعلت تلك الكومات تنقشع وتنحسر فينتقل مردودها الى اعماق الدور في أماكن الخزن والادخار ، أما الان فان نتاج الكروم مع قليل من الخبز يكفي النفوس ، فالعنب كثير ، والتين أنواع ، والرمان ثماره دانية ومتفتحة .

تتباعد مساكن الكروم المؤقتة ولكن الناس بعد ان تبزغ الشمس ، وتسكب أشعتها فوق الاشياء ، يتوافدون على السوق الرئيسي في القرية ويتجمعون ، فيتذاكرون .. وكانت الخواطر التي تدور في الرؤوس كثيرة .

كان الحاج علال يتنهد .. وينتفض من اعماق ركبتيه ، وهو ينظر بعيدا حيث الافق البعيد ، ويمعن النظر كأنه يريد ان يبحث عن شيء مفقود في دنياه فيترك بصره تدنيه الغيوم بعد ان اعياه طول الابصار .. انه يفكر فيها ، وكيف ستكون مع الزمن ولن يترك نصيحة عبد الستار .. يريد ان تقرأ احشاياها لطوارئ الزمن .. يستغفر الله بصوته الهامس ، ثم يشترك في الحديث مع جلسائه عند الرصيف ، وتحت شجرة الخروب الضخمة .. ويذكر شيئا عن رغبته ، ولكن بعض رجال القرية كانوا يتهامسون .. الا يكفيها التربية في البيت ؟.. لا حاجة لها غير ذلك ، فلماذا يشاكس الحاج علال في تفكيره وعمله ؟.. انه لا يعرف معادن الناس ، والمخلوقات .. انه لا يعرف كيف يضع قدمه على الارض ايضا ، ولا يأبه لرأي الجميع .. ان الحاج علال عنيد ، فقد ركب رأسه ، واهمل مشورتنا ، فصمم على المجازفة ، .. لا رده الله .

اما الرجل فكان يتحدث مع نفسه .. لقد حاول والدي رحمه الله أن يقودني الى الجامع حتى اقرأ .. هربت لأنني كنت جاهلا ، هربت وانا لا اعي نتيجة ذلك ، ولكن الامر انتهى بالنسبة لي ، .. لن احرمها قراءة القرآن .. سأشتري لها ما تحتاجه من حوائج ، وارسلها الى الشيخ احمد ، انه معروض يشهد له الجميع ، ويفوح العطر من اردانه ، وينطلق لسانه بالآيات الكريمة ، واجمل الحكم ، والنصائح ، ويؤم الناس يوم

الجمعة . انه رجل خدم القرية ، واجره على الله ، ليس عندي غيرها ، تزوجت مرتين حتى أرى أولادي .. كغيري من الناس ، ولكن الله لم يرد .. تكفيني حياتي مع أهلي .

عاشت القرية اسبوعا حافلا بالبهجة ، ولم ينس عباس ابن البصير رجال القرية ، دعاهم جميعا للطعام ، فقد استطاع أن يجد العروس لابنه الذي تأخر عن أقرانه من أبناء القرية حتى وصل سن العشرين .

كانت ليلة عامرة بالطرب ، ومفاخر الاكل ، والدعاء فلقد جلب والد العريس فرقتين للغناء من المدينة المجاورة .

كانت الساعة هي التاسعة ، واقرباء عباس يقدمون الاكل تخرج صحون اللحم بالبرقوق لتحل محلها موائد الزيتون باللحم الدسم ، وتتدفق عناصر اخرى من الطعام بين الحين والحين .

كان الحاج علال جالسا بجوار الشيخ عبد الستار بينما كانت أصوات الطبول ترتفع ، ومغني الملحون(1) يردد بصوته :

... يـــا قاطعين الجبال ، وزايرين النبـــي

... يا واخذين قلبي ، وجوارحي ، وشبابي

... يالمالكـــين ورحي ، ومعهـــم شواقـــي

... يا اللي سكنـــوا في قلبي ، وعماقـــي

---

(1) ضرب من الغناء المغربي .

ويطرب الجميع .. لقد ابتهلت الوجوه على ذكر الرسول ويطلب معظم الجالسين من المغني أن يزيد ، فيرتفع صاحب الصوت بقامته ، ويمسح عرقه ثم يزيد ...

يا مـــن ملك قلبي رهـــين   رأيت على خـــده اليمـــين

الزهر ، والورد ، والسوسان ، والياسمين

قلت لـــه انت المليح بالحق   قـــال لـــي مليـــح

قلت له انت كحيل الحدق   قـــال لـــي وقيـــح

قلت هـــل بالوصال تشفق   قـــال لـــي شحيـــح

قلت لـــه أمـــا تلـــين ،   وتنيـــل العاشقـــين ؟

الزهر ، والورد ، والسوسان ، والياسمين

وينطلق صوت عباس ابن البصير من جوف الدار ، رافعا رأسه وقارورة العطر بيده : « اللهم صلي عليك يا رسول الله » فيرد عليه الحاضرون ، ويصمت الحاج علال ، ويسند الشيخ عبد الستار ظهره نحو الجدار عندما سمع ذكـــر الرسول .

كان الحاج يتمتم .. ومتى سيكون لها مثل هذا اليوم ايضا ؟ أما عاشور فما زال في جلسته يهتز ، وينظر الى عناصر الطرب .

ويخرج الحاج علال مع من غادر في نهاية الحفل عند منتصف الليل ، ورائحة العطر كالهالة تغطيه ، وتغطي رجال القرية ، ويهمس في اذانه الشيخ ..

- لا تنسى ما ذكرناه ..

- توكل على الله يا شيخ .

جالت الفكرة كاملة في ذهن الحاج منذ أيام الحصاد ، وبقي عليه أن يسمع شيئا من مباركة ، عرض الأمر عليها ليسمع رجعا لجوابها في الحال ، صمتت وهي تعلف الدجاج ، تخلص من عملها فلا تتكلم . ذهبت الى الكير لتزيد من اشتعال النار فتجلس بجوار الكانون وهي تحدق في الفراغ باتجاه الباب الخارجي ..

انه لا يرضى لها أن تصمت فذلك يغرقها في أعماق التفكير ، ويوصلها الى الماضي السحيق الذي لا يهوى الرجوع اليه ، أو النبش في فتاته ، وتخرج مباركة من صمتها .

- وماذا تبتغي من وراء ذلك ؟ وماذا سنجني من هذا التعب ، والهم الجديد يا حاج علال ....؟ ان بنات القرية لا يقرأن جميعهن .. ولا تنس انني أعلمها في البيت أمور المنزل وهي أمور الحياة .

- انها يا مباركة ستعرف أمور الدين .. ستقرأ القرآن ، وستفهم معنى الصلاة ، وستحدثنا عما تأخذه من الشيخ الفقيه انه شيء ضروري .

- ومن الذي قال لك هذا ؟

- انه الشيخ عبد الستار الذي يؤم في الناس عندما يغيب الشيخ أحمد الفقيه .

- انني أرغب يا حاج أن تكون البنت في الدار الى جانبي ألا يكفي أن رشيدة .. ويغضب الحاج فيقوم من مكانه ويأمر الزوجة أن تسكت ، انه يعرف ما تنوي أن تقوله ، ويحتد النقاش ، ويستمر بين أخذ ورد .

اتجه نحو حذائه فيلبسه عند الباب ، ويخرج متباطئا مقطب الجبين ، وهو يستغفر الله .

لقد أحس الشيخ علال بالمرارة .. نسي أن يشرب ليزيل جفاف حلقه ، تذكر الماء عندما خرج من الدار الى الزنقة(١) .. ولكنه لن يرجع .. راح يبحث عن مجمع من مجمعات رجال القرية ، وسبحته المصنوعة من حب الأرغان تلوح في يده ، وقد نسي التسبيح ..

---

(١) الشارع .

- ٢ -

شعرت مباركة من طرف خفي ان الزوج بعد عشرين حولا بدأ يشيح بوجهه عنها ، ولم تعد لوجهه تلك الملاحة ، أو ذلك الاشراق ، فازدادت وساوسها ، لاحظت أن الدنيا تختلف ، وكبرت سحابتها الداكنة لتشمل جميع أركان الدار ٠٠ فلماذا لا تنهي ظلال الجمود الذي ران على النفوس فتوافق ، ولتذهب رشيدة الى دار الفقيه ، ولن يحتاج الامر الا للوح خشبي صغير ، وقليل من الطباشير ، أو قلم رصاص ، ودفتر ، وعدد من الريالات في كل شهر ٠٠ وليس على الكريم حرج ٠

تذهب رشيدة تحت ابط الحاج علال ، ويخترق الاثنان جدار الشيخ احمد الفقيه الذي كان يطل على تلاميذه ، من مكان مرتفع كالبرج في أرض الغرفة ذات الشكل الخماسي ، والسقف الخشبي ، وبيده عصاه الطويلة التي كان يستطيع بها أن يصل أبعد شيطان في حجرته ، ثم يهدد ويتوعد من تسول له نفسه ان يعبث بنظام الحجرة غير المكتوب ، وكان الصغار يذكرون اذا ابتعدوا عن شيخهم ان عصاه أطول عصي القرية على الاطلاق فلا بد أن يكون وقعها أشد ايلاما من غيرها ، وطعمها يختلف !

دخل الحاج علال الفناء قابضا بيده اللينة على يد رشيدة الغضة ، وينادي بأعلى صوته على الشيخ فيسمح له بالدخول ، ويقترب من باب الحجرة وما عليه الا أن يدفع ستار القماش القديم الذي أسد لـه الفقيه على بابـه ، ويرحب الشيخ بزائره ٠٠ ويتم كل شيء ٠

خرج الحاج ثم يلاقيه الشيخ عبد الستار ، فيستوقفه ، ويخبره الحاج بصوت تشحنه البهجة ، فتنفتح أسارير الشيخ ٠

كانت رشيدة تذهب كل يوم الى معلمها الذي كان يلقي على طلابه في حجرته المختلطة دروسا في القرآن الكريم ، وتركيب الحروف ، ومبادىء الأرقام ، وشيئا من قصص التاريخ ، يسمعون كل شيء وهم على قطع الحصير المتآكلة في صفوف متراصة ، كخلية من النحل في ايام الشتاء ٠

لقد وجد الشيخ في رشيدة أذنا صاغية ، ونفسا صافية ، تمتص كل ما يذكره عن ظهر قلب وبسرعة غريبة ، فيحنو عليها ، ويربت على كتفيها بحنان الأب عند الدخول وعند الخروج ، وعندما يلتقي الفقيه بالحاج علال يشيد بها ويثني على تربيتها ، فيحس الحاج بنشوة عارمة ترفعه الى دنيا السماء فينقل ما يسمع الى مباركة التي نسعد بصغيرتها ٠

وتقبل الأيام ، وتمر ، وتحلو الدنيا فتستطيع رشيدة أن تجتاز السنة الأولى ، وتصل السنة الثانية ، والشيخ أحمد الفقيه يشدها الى قلبه ، وتكبر في نفسه ، ومع توالي الوقت تحاول الفتاة أن تفسر كثيرا من الآيات الكريمة التي تحفظها أو تسمعها من جوانب المذياع ، ويتوجه الحاج علال بالدعاء الى الفقيه الذي هذب صغيرته ٠٠ انه واحد من المخلصين من أهل الارض ! وعندما كانت تتحدث رشيدة من خلال كلمات المذياع كانت مباركة تهمس بصوت خافت ٠٠ سبحان الله ! ٠٠ سبحان الله !

تكبر رشيدة ، وعاشور لم ينقطع عن زيارة الحاج علال ، يثني على تجاربه ، ويجلس الساعات الطوال عنده ، وبين الحين والحين ينظر الى الفتاة ، ويختلس النظرات ولكن بحذر ، اما الحاج فكان يعتبره واحدا من اهل بيته .

كان عاشور يجلس في حانوته الذي بدأ يتضاءل منذ أقبل على استعمال الكيف ، وعندما يرى الحاج يسرع فيخفي أدوات التعميرة . وبعد سنوات تنهي رشيدة دراستها ، وتغادر مدرسة الشيخ ، وتبقى في البيت .. تعلف المواجن ، وتصنع العجين ، والعصيدة ، وتجيد طبخ اللحم بالسفرجل ، وتذهب كل صباح لكي تحضر الماء من الشلال المنحدر من صخور أعالي الجبل الذي يشرف بخضرته الدائمة على بيوت القريـة ومداخلها . تسير رشيدة كل صباح لتجلب الماء بوعائها الريفي بصحبة بنات القرية ، فتمر في طريقها من خلال كرم العائلة الواسع الذي يزخر بضروب أشجاره ، والتفاف أرائكه ، وأصوات عنادله على الافنان ، ويتخلل ذلك صوت الشلال المتدفق ، والمتساقط على جوانب الصخور ، وقيعانها المخضرة ، فينطلق من ذلك نغم دافق ساحر وسط أجواء الكرم التي تعبق ، فتزداد نفسية رشيدة تفتحا ، وانسجاما ، ورواء .

وتمر على القرية سنة جفاف ، فينقبض وجه الحاج ، ويقترض قليلا من المال من صديقه عاشور .. انه لا يملك

الا الكرم ، وقطعة أرض فلاحية تعتمد على ماء المطر ثم الدار التي يسكنها وتتوج فناءها شجرة صفصاف فارعة تعانق الفضاء .

بدأ الحاج يفكر بدين عاشور ، وبحاجة الدار .. فماذا يصنع ؟ هل يبيع شيئا مما يملك ؟ الكرم .. ام قطعة الارض ؟ يسأل الزوجة .. ماذا ترين يا مباركة بهذا الوقت الذي جاء لنا بالدين ؟

– انه عام ياحاج ، وسيفوت كما فات غيره .

– ولكن مسالة الدين ليست سهلة .. وأخاف ان يتراكم علينا المال ، وأنا أكره الدين .

– لا ضرورة يا حاج لأن نقترض كثيرا .

– لا بد ان نقترض فالعام طويل .. وبدلا من الاقتراض سأبيع .. اما الكرم ، أو قطعة الارض .

– لا نستطيع أن نفعل ذلك .. فمن أين نعيش اذا بعنا الكرم أو الارض ؟

– ودين عاشور .. كيف اسدده ؟

– ألا يستطيع الرجل ان يصبر وهو صديقنا ؟

– انه يقدر على ذلك .. ولكن لا أتحمل شيئا من هذا .

ويصل الحاج بفكره الى شيء .. سأبيعه ، فبيعه مضمون ، وسريع لسداد الدين اكثر من قطعة الارض .

ويتفق الرجل مع جاره في الكرم على البيع ، ويلاقيه الشيخ عبد الستار عندما سمع بالاتفاق ، ويهم ان ينصحه ليعدل عن عزمه ٠٠ انه يقدر الشيخ ، ولكنه اتفق بلسانه ٠٠ اغراه عاشور فانهى عملية البيع ٠

ذهب الكرم ، فأحس الحاج بالغبن ، تملكته الندامة ، ولكنه لا يقوى على الرجوع ٠٠ راح يفكر بالتبكير في حراثة الارض ، ولم ينتظر حتى ترتوي أتلام الحقل بمياه المطر ، وكأنه ينوي أن يحسم ما حدث ٠

اشترى المؤونة والبذار ٠٠ كان يذهب للحراثة ، يغري نفسه بالآمال ، ورائحة الصلصال ، والحصى الرطب التي يثيرها حد المحراث تملأ عليه أنفاسه فيثمل الرجل من حبه للتراب ، ويعيش في سمعه مع صرير المحراث الذي يعالج أديم الارض ، ولا يخرجه من ذلك الصوت الرتيب الا وقع أقدامه ، وحشرجة الحمار ، فيخرج الرجل من صمته ليتساءل ذلـك الغروب عـن ضمان حراثته المبكرة بخلاف فلاحي القرية ٠٠ وما الذي سيبيعه بعد الكرم الذي يعيش من مردوده ؟ ماذا سيحدث مع الزمن ؟

يصل الرجل الى القرية عائدا ثم يضع المحراث باجزائه فوق بعضها البعض مكومة تحت شجرة الصفصاف العامرة التي بدأت موجات الخريف الباردة تهز أغصانها ، وتكت أوراقها الصفراء ، وتنفضها على اطراف المحراث ، فتغطي فناء الدار ٠

وبعد صلاة العشاء يخلد الحاج الى الراحة ، والنعاس ، والهموم ، ولكنه يضيق من شبح النعاس ، بقي هادئا ذلك الليل ، وصمت الليل الطويل لا يقطعه الا صياح الديك ، ونباح الكلب المتلاحق عند طرف منعطف الرابية بجوار البيت ، وصفير الريح يتخلل من شقوق الباب الخشبي ، وهمس الاوراق الجافة ينبعث من أرض الفناء ، وقبل أن يقترب الفجر يكثر الرجل استغفاره حتى ينسى نفسه ، فيحتويه النوم .

وتطول سويعات الأيام ولكنها تمضي ، وتجود المزن بأمطارها فتغسل الصخور من غبار الخريف ، ولكن مطالب العيش ، وكلفة الحياة تأتي على الذخرة الباقية في جيوب الحاج علال ، ولم يبق عنده الا قطعة الارض الضيقة في حقله القديم ، ومسكنه الذي يظل عائلته ، وحماره ومحراثه ، وبعض المعاول .

جاءت نهاية الموسم فأدرك الرجل ان الكرم هو الذي كان يسعفه ، ويغطي كل ما يحتاجه .. ويستشير صديقه عاشور فينصحه بما نصحه وقت الكرم .. يحدث الزوجة عن رغبته قائلا :

– سأبيع الحقل يا مباركة .. لم يبق عندي غير ذلك .

– ماذا دهاك يا حاج ؟ ! بعت الكرم بالامس ، واليوم

تريد بيع الحقل وبعد الغد ماذا ستبيع ؟ .. لا شيء غير البيت .

– سأبيع الحقل فهو ضيق ، ولا يساعدنا في سد نفقات عيشنا .

– اذهب ، واصنع ما تبغي .. ولا تسالني مرة أخرى .. اذهب !

– يا مباركة ليس عندي غير ذلك ، فانا لا ارغب أن تكون حياتي كلها ديون .

– يا حاج ان حياتنا في القرية هي قطعة الارض ، فاذا بعتها لماذا نبقى في القرية اذا ؟

– ان بلاد الله واسعة .. ولن نموت جوعا .

صمتت مباركة وأخذت الدلاء ، وذهبت الى الشلال كي تحضر الماء ، ولكنها لم تنتبه لنفسها الا وهي وسط كرمهم القديم ، فتغرورق عيناها بالدموع .

باع الحاج حقله وانتهى كل شيء ، وسيأتي دور الحمار الابيض ، والمحراث ، والدار ، والمعاول ، وغير ذلك ، كآخر فصول في مسرحية حياة القرية عند الحاج علال .

– ٣ –

مكث الحاج علال ساعة عند صديقه بعد شهور من بيعه لحقله ، واسترسل في الحديث مع عاشور الذي بادره قائلا :

ـ لم تعد القرية ذات اهمية يا حاج .

ـ وماذا تصنع يا عاشور بارك الله فيك ؟

ـ المدينة .. المدينة يا حاج افضل بكثير من القرية .. بعت الحانوت ولن أبقى في هذه القرية الملعونة .

ـ في القريـة نعمل في الحقول ، ونخـدم في المواسم الفلاحية ، ونعيش حتى ولو لم يكن لنا الحقول والكروم ، أما المدينة فماذا تعمل بها ؟ ان جوها ثقيل يا عاشور .

ـ رحم الله والديك يا حاج ، ان المدينة احسن للخدمة من القرية .. تخدم بها ، أو تعمل بحقول الشمندر القريبة منها ، واذا بقيت في القرية فانك تقلق كثيرا .

ـ لماذا أقلق من القرية لا من المدينة يا عاشور ؟ !

ـ لأنك يا حاج كنت سيد نفسك قبل أن يجور عليك الوقت .. أما الآن فأنا لاارضى لك أن تخدم عند غيرك من صغار الفلاحين .. انهم لا يعرفون قيمة الكبار .

لم ينطق الحاج بشيء .. بقي واجما ويداه ملتفتان على ركبتيه ، ولحيته البيضاء مدفونة في أسفل صدره ، ويخاطبه صديقه بنبرة قوية :

ـ المدينة يا حاج .. لنهاجر اليها .. لقد عشت كثيرا في القرية وبركه عليك ، ولم يكن لك فيها حظ ، صدقني .. وهنالك غيرنا هاجروا .

- صحيح يا عاشور ، لم يبق لوجودي في القرية معنى بعد أن تغيرت الظروف ، وساءت الاحوال ، سأكون رفيقك الى المدينة ان شاء الله .

ذهب الحاج علال ولم يمض الا شهر لم يبع الرجل مسكنه وما فيه ، وتثور عليه الزوجة وحتى رشيدة التي احتضنت المذياع وهي تدافع عن فكرة الانسانة التي تقدسها ولكن دون جدوى . يحاول الرجل ان يقنع زوجته ثم رشيدة .. في أن حياتهم في القرية غير ضرورية ، فسيذهب للمدينة مع من ذهب . وتقول له الزوجة ووجهها طافح بالغضب .. ان المدينة يا حاج فيها الفجور .. وفيها النساء يخدمن مع الرجال ، بعيدا عن بيوتهن ، وأولادهن ، وأزواجهن .. ويقولون بأنهن يكمين(١) القارو ، فيجيبها .. نحن في حياتنا لا يهمنا غيرنا .

سيهاجر الرجل من القرية الى المدينة التي سيذوق فيها طعم الراحة من جديد بأيسر السبل ، وسيعود شبابه الأبق من ثم ، وسيرتاح من تعب المحراث ، والحمار الابيض ، ومشاكل الحياة و .. و ..

وقبل وصول الحاج بيوم الى المدينة تساءل عاشور وهو يقضم أطراف أظافره .. لماذا تأخر الحاج عن المجيء حسب ما اتفقنا عليه ؟ وهم بالرجوع الى القرية حتى يتعجل صديقه

---

(١) يتناولن السجائر .

ولكنه انتظر حتى اطلالة الفجر التالي وهو مشدود بكل عروقه ، واعصابه ، ووساوسه ، وشهيته الى محطة الحافلات في المدينة .

سينتظر ولا يهمه الجلوس ساعات عند حافة الشارع فزوجته الأخيرة أبعدها عنه بالطلاق قبل شهرين ، وكأنه كان يفكر بذلك قبل سنة أو سنتين .

يصل الحاج علال بعائلته الى المدينة فيجد صديقه في انتظاره ، فتركن نفس الرجل الى أخيه الذي نزل عليه من السماء ، اما مباركة فكانت عابسة وكأنها ترفض أن تطأ قدماها أرض المدينة بصخبها وغرابة ضجيجها .. تنزل من الحافلة بطيئة مرتابة ، يبدو على وجهها بوادر التقيؤ ، وتتبعها فتاتها التي لمحها عاشور وهو يقف على أصابع قدميه ، ويفرك عينيه حتى يرى طبيعة الالوان .. ويرى كل شيء .

ويرحب عاشور بالعائلة ، ويساعدهم بنقل المتاع ، ويسكن الحاج وأهله تلك المدة الوجيزة عند صديقه الذي أكد على ذلك وبعد اسبوع وجد الرجل بيتا مناسبا ، وغير بعيد عن بيت صديقه الذي عمل (عساسا) يحرس في الليل .

وجد الحاج مسكنا ، ولكنه أخذ يتساءل .. ماذا يعمل ؟ .. لا بد من الخدمة لكي يعيش وعائلته ، فالزوجة تركت له ان يختار ما يشاء وتشاركها رشيدة بذلك ، كانت مباركة قليلة الكلام مع زوجها منذ وصلوا الى المدينة .

وقد رأى الزوج في ذلك حافزا لأن يجد في البحث ، واستغرق منه ذلك مدة تزيد على أسابيع ٠

كان الرجل يتجول في شوارع المدينة من حي القصبة حتى آخر مكان في الجهة الحديثة ، فليس هنالك الا الحوانيت واصحابها ، وهنالك الدوائر ولكن ! ٠٠ ليته يكون فراشا ، الا أن كبر سنه لا يسمح له ان يلج ذلك فالشهادة الطبية ضرورية ، لم يكن امامه الا العمل بالفأس ، انها مهنة قاسية للرجل الذي بلغ من الكبر عتيا ٠٠ فرض ذلك على نفسه ، وعلى جسمه النحيل حتى يعيش ٠

يتذكر محراثه المهجور ، ويتخيل حلاوة القبض عليه فتعبه مع يد المحراث ضئيل جدا ، أما اليوم فان الفأس التي يرفعها فوق هامته ، ويغرسها بارض المدينة الصلبة لا ترحم ٠

بقي الرجل على هذا الحال ، فيراه بعض أهل قريته الذين يأتون للمدينة لبيع الزيت ، والعسل ، والدجاج ، ومنتجات اخرى فيرقون لحاله ، ويتهامسون ، ويسألهم عن اخبار القرية ، وزمانها ، فيسمع بان احوالها غاية في الرخاء ٠ انها افضل مما كانت عليه عندما هجرها ويتساءل الرجل ٠٠ لماذا ترك القرية وباعها ؟ كيف هجر القرية التي راحت مواسمها تزخر ، واقتصادها ينمو ؟ ٠٠ تذكر املاكه التي افناها فاصبحت الحياة في عينيه نشازا ، وألما لا يطاق ، بعد عن القرية التي نبت فيها ، وقضى معظم ايام حياته في ثناياها ،

وامدادك رئتاه بهوائها الطيب ، وأكل من عسل منحدراتها ، وحناياها من الخلايا المتواجدة في تطاعيف الصخور حيث يغطي الأقحوان ، وشقائق النعمان وجه التراب ويزداد استغسار الرجل .. لماذا لم اسمع من مباركة وجاري الشيخ عبد الستار ؟ وكبت رأسي ، فطرقت حتى اذني بالخطأ ، والفشل ، وجئت لأبدد حياتي في المدينة التي لا تحترم السن .. وعاشور .. انه جرني لذلك .. ولكن المسخوط كان يريد مصلحتي ، ولا يضمر لي قبيحا ، لو كنت في القرية ، وبقيت هناك لارتحت من العناء ، والهموم ، وستتزوج رشيدة من احد ابناء القرية النشيطين ، آه ياليت .. ولكن استغفر الله العظيم .. استغفر الله العظيم وأتوب اليه .

بقي الرجل يعمل حتى ازدادت عروق يديه بروزا وكثرت تجاعيد جبينه التي يغسلها العرق بين فترة واخرى ، ولا مفر من ذلك . ان متطلبات الحياة كثيرة والزمن لا يرأف ، ولكن الى متى ؟ أما آن لهذا العمل ان ينتهي ؟ !

يذهب في الصباح مبكرا ، ويأتي للأهل متأخرا . استسلم للوقت فتآكلت أطراف اصابعه ، وازدادت التجاعيد تجاعيدا في وجهه المكدود ، فعرف بأن ايامه ضئيلة اذا سار على هذا الطريق ، ولكن هل يضجر ، هل يئن ؟

ألحت عليه مباركة بأن يغير هذه الخدمة التي جعلته يقترب من نهايته ، ويتغير حتى في نومه ، ما هو العمل الذي

يمكن ان يلقاه فيكون بديلا للفاس ؟ ليس هنالك من شيء يلوح في الأفق .

وبعد تفكير أيام متتالية يصل الحاج الى مبتغاه .. لقد وجدها .. أن يصبح حمالا . ولا يحتاج العمل الجديد الا الى بعض المال لشراء عربة خشبية ، فهنالك بعض الدراهم في صرة مخزونة في جوف شق عميق بجدار المسكن ، وضعتها الزوجة .

وفي خلال سويعات انعدام الخدمة يستظل بجوار عربته ، أو يجلس بجانبها ، يتفكر فيما يرى ، وينظر من خلال الغيوم والسحاب ، فقد يتثاءب فتسرقه اغفاء فينسى الدنيا ومن فيها رغما عن انفه ، ولا يفيقه الا صوت طارق يطلب منه نقل متاعه فينشرط من جديد .

وفي صباح أحد الأيام تذهب رشيدة الى سوق المدينة فترى ، وتقف مشدوهة للمنظر الذي وقعت عيناها عليه . شاهدت منظر الحاج وهو يحمل امتعة لاحد النزلاء بأحد فنادق المدينة . رأت انسانا يقترب من عالم الشيخوخة ، يمشي منكسا رأسه ، يجر عربته خلفه ، ويداه تتجهان نحو الارض من على أعواد العربة كأنه مجرم آثم حكم عليه بالاعدام شنقا على الأعواد .

لمحته رشيدة ولم يحس بها فترتاع من المنظر ، ولكنها تقضي حاجتها من السوق فتعود مسرعة الى البيت بنفس منقبضة ، فتنقل ما رأت الى حبيبتها مباركة .



انهي الحاج عمله ذلك المساء ثم وصل الى البيت ، فتضع له رشيدة الفراش بحركة سريعة ، فيرتاح قليلا وتفاجئه قائلة :

– اهذا يا والدي هو عملك كل يوم ؟ أهذا هو ثمن الحياة التي نحياها بارك الله فيك ؟

– وكيف حكمت يا ابنتي على ما أقوم به ؟

– لقد رأيتك يـا والدي وانت تحمـل المتاع لأحـد المسافرين ·

– يا ابنتي رشيدة ان لقمة العيش هي نتيجة للتعب والعرق ، فالرزق لا ينزل علينا مصنوعا من السماء ·

– نعم يا والدي ، هذا صحيح ، ولكن الرزق الذي تاتي به الينا هو خليط من العرق والدم ، انه مغموس بالاثنين ·· لا يا والدي ، اقتصد في عمرك ، بارك الله فيك ، ورحم والديك ، باش[1] تبقى لنا ·

– وما العمل يا رشيدة ؟ قالها وهو يضحك في داخله ، ثم تنفرج شفتاه ويبتسم ·

– العمل هو ان أساعدك يا أبي ·

– وكيف تساعـدينني يـا ابنتي ؟ وانت اعتدت على الراحة وقراءة الكتب ، هل وصلنا لهذه الدرجة ؟ هل خانتني

---

(١) من اجل أن ·

قواي ؟ هل انتهت الدنيا من عزيمة الحاج علال ٠٠ لا ، لا يا ابنتي ، انا ما زلت على قيد الحياة ٠

- لم تنته الدنيا يا والدي بارك الله فيك ، فمازلت قويا ، واقوى من الحديد ، انما ابغي ان اعمل كغيري ٠٠ ان اخدم عند اية عائلة فأساعدك في تصريف أمورنا ، وانت ما عليك الا أن تهون على نفسك في الخدمة التي أرهقت ظهرك ، والحقت الوهن باعصابك القوية ، وأثرت على يديك التي بدأت اطرافهما تتآكل ٠٠ نحن يا والدي بحاجة اليك ، نريد ان تبقى ٠

وساد صمت طويل والرجل يحدق ناحية الارض وتتدخل مباركة لتكسر لحظات السكون قائلة :

- ان رشيدة يا حاج تتكلم بالمعقول ولكن اذا وجدنا العائلة المحترمة التي نرتاح معها ٠

- رحم الله والديك يا اماه ، فالامر لن يكون صعبا ، هنالك الكثيرات غيري يخدمن ، ولا عيب في ذلك ، فأنا اشعر بالفراغ لـولا حديثي مع والدتي ، وتقليب الكتب التي اشتريها باثمان زهيدة من السوق ٠

- هنالك العائلة التي تسكن بالبيت المقابل ، سمعنا انها تبحث عن خادمة فستكونين يا عزيزتي في مكان أمين كذلك ،فالزوجة يا حبيبتي معلمه ظريفة كما نراها ، والزوج عندها موظف وعندهما بعض الاطفال ، فلا بد انها ستعاملك

بشيء من الحسنى واللين ، انني اراها لا تتكلم كثيرا ، ويظهر عليها انها ثقيلة ٠

ـ نعم يـا والدتي انني أراهـا كذلك ، انها مهذبة ورزينة ٠٠ انها معلمة ٠

- ٤ -

تم الاتفاق بين مباركة وبين تلك العائلـة على الأجـر والخدمة ، واضافت الام لربة العائلة ٠٠ ان ابنتها تكتب ، وتقرأ رغـم انها غـادرت مدرسة الشيخ ٠٠ وانها ابنتها الوحيـدة ، ولكن الظروف القاسية اجبرتهـا على التفريط بالفتاة ٠٠

وعدت ربة العائلة مباركة بأن رشيدة ستعيش بنفس الأمتيازات التي تعيشها هي وافراد عائلتها وباكثر من ذلك ، وستنام على سرير ، ووسائد من الصوف ، والقطن ، وستلبس ما تهوى ، وما تريد ، وتأكل ما تشتهي ، وستحصل على السعادة من جميع اطرافها ، وبطرفة عين ٠

اطمأنت مباركة للحديث المتواتر الثقيل فردت قائلة :

انك يا عزيزتي فاضلة ، والدنيا ما زالت مملوؤة باهل الفضل الذين يرأفون ، والذين يحنون على من يحتاج لحنوهم ، وتقول لها محدثتنا :

ـ بارك الله فيك يا ابنتي .. وتقبض مباركة على يد المعلمة فتقبلها بشراهة ، ثم تغادر المنزل . عادت الى بيتها وهي على ثقة كبيرة بأن رشيدة ستعيش السعادة كلها عند هذه المخلوقة التي ظهرت في حلم ليلة .

وبدأت ربة البيت تعلم الفتاة في لحظات ما تعلمته هي في سنين .. استعمال البراد ، وخزانة الاطباق ، فرن الغاز ، وما كبر أو صغر من مور المنزل . وقد مهرت الفتاة في كل ذلك ، وراحت تعد الطعام ، وتغسل الاطباق ، وتنظف زجاج النوافذ وتحافظ على الاطفال .

صارت الأمور في الاسابيع الاولى من الخدمة حلوة على رشيدة ، لذيذة لذة العسل في نفس شاربه .. انقضت فترة الوعود ، وذابت في دخان المدينة ، وأخذت الحياة تتراخى ، وشهوة الانتقام تظهر وتؤججها في العروق نار عارمة .

بدأت السيدة تأمر خادمتها باعمال متراكمة من الصباح حتى وقت ما بعد الغروب ، ودون أن تبدي قناعة بمردود عمل خادمتها وكأنها رأت في رشيدة الأنسانة التي ستسلبها حقها في ملكية شؤون البيت ، وبدأت الغيرة .. حواء تغار من حواء . ثم زادت المعلمة الفاضلة وأغرقت في الاهانة دون أن تلقي بالا لسلوكها وكلماتها التي جرحت الوجه الصافي ، وآلمته حتى الاعماق .

ولم يكن أمام ربة البيت الا ان تأمر رشيدة بنقل فراشها الى الحمام في الليالي التي تستبقى فيها الفتاة عندها عندما يغيب الزوج جزءا من الليل ٠

كان ذلك الزوج يجاري زوجته الوقورة ، فيشهد على تأنيب رشيدة لأقل خطأ قد يكون ، وقد لا يكون ، وماذا يفعل هذا المسكين الذي ما زال يرزح تحت قسوة نظرات الزوجة ، وكثرة احداقها في وجنته ٠

كانت رشيدة تحمل في جوفها هما كبيرا ، ينمو مع اللحظات فيثقل على قلبها ، ويتسرب الى النفس التي تصدع بكل ما تؤمر به ٠

انها لن تقول شيئا للوالدة ، ستبقى كل شيء في ضميرها وطيات اعماقها ٠ عليها ان تتحمل في سبيل اليدين المعروقتين ، والجبين الرمادي المتجعد الذي غيرته السنون ، وماذا ستقول عن ربه الاسرة التي واتتها الفرصة الهزيلة فأصبحت معلمة بالضرورة ، تقتل وقت عملها في المدرسة وخارجها بالحديث ، والهمس مع غرز الصوف وتنهش من حولها من بنات حواء في تيه ٠

كانت تلك المرأة تحاول أن تهرب من رتابة حياتها الجديدة فخادمتها تفوقها جمالا وهدوءا ، ظنت بأن تلك الفتاة قد تحجرت مشاعرها فلا تؤثر فيها الكلمات التي تزخر بالعفونة ٠٠ فهل تقوم بطردها ؟ سكتت ٠٠ ثم همست ٠٠ لن استطيع

استبدال الفتاة ، فأهل الحي عرفوا أنني لا أتقبل الخادمة أكثر من شهرين خاصة اذا كانت فتاة ، لأبق رشيدة عندي سأتحملها على علاتها ، واذا تضايقت منها سأطردها وما أسهل ذلك وتصمت قليلا ثم تعود لنفسها مخاطبة ، هل يعقل ان فتاة حلوة ، غاية في الحسن مثل رشيدة لم يتعلق بها شاب أو تهوى غيرها ؟

هناك بعض ابناء الدرب أراهم على الدوام ، يتسكعون عند أبواب الزنقة وزوايا الحوانيت مثل علي ، انه كثير الحركة فربما له علاقة مع الفتاة .. انه دائم النظر الى نوافذنا ، وليس بعيدا ان تكون رشيدة قد احبته .. يا ليتها تقع في يدي .. ولكن سأصبر رغم ان أعصابي تتفجر .

وتنبه ربة الاسرة خادمتها من أبناء الحي ، وتكرر ذلك على مسامع رشيدة ، وتتهمها بذلك ، وتتساءل الفتاة ما الذي حدث لهذه المرأة ؟ عجيب أمرها ، كم هي غريبة .. وخبيثة !

- ٥ -

يمضي مساء ويأتي صباح ، ويفوت شهر ، ورشيدة تتذكر أقوال سيدتها عن ابناء الدرب ، وكأن الكلمات ايقظت الفتاة من غفلتها فأخذت تنظر لمن حولها في الدرب ، تراقب الوجوه ، وتتريث تشاهد علي ، وسعيد ، وغيرهما من شباب الحي ، ويتابع سعيد نظراته اليها . يرمقها ويمعن النظر

كلما شاهدها ، ويعرف أنها تعمل خادمة فيشفق على محياها ليته يستطيع ان ينتزعها من تلك الاسرة لتخدم عند والدته ، ولكن اخواته يقمن بالعمل داخل البيت ٠٠ ٠

كان اذا رآها يومىء اليها بابتسامة سريعة ثم بتحية خاطفة ، وتقابله رشيدة بتحية مماثلة ، ثم تطول التحية حتى تستوقفهما ٠

سنتان مرتا على ذلك ، فتكبر العواطف وتستعر ، وتستقر الاطياف والبراءة في قرار مكين ، وتتسع الدنيا وترق، وتعذب ويطيب هواؤها ٠

سينتظم سعيد بالوظيفة بعد ان ينهي دراسته القصيرة التي تلت البكلوريا ، ولم يبق عليه الا آخر العام ، وعند ذلك سيفاتح والده ٠٠ فوالده يعرف أهل الفتاة منذ أيام القرية ٠

اتسق قوام رشيدة ، ونمت أنوثتها ، وازدادت بشرتها السمراء الكاشفة نعومة حتى كان تحت تلك البشرة لونا عاجيا ، ويبدو لون وجنتيها اكثر صفاء وبريقا ، كصفحة غدير تعكس وجه السماء في ليل مقمر من ليالي مايو ، ويتمنى كل من الاثنين ما يتمناه الآخر ، ويتفقان على شيء ٠

ان رشيدة في نظر ذلك الشاب تسكن في مكانة سامقة تعبق بشذاها فتغطي كل الكون باريجها ٠ انها هي حواء وحدها فتجتاحه اطيافها حتى الصميم ٠

وفي أحد الايام اتجهت رشيدة الى بيت أهلها لترى كبيريها، وجدت سعيد بطريقها ، فأخذا يتحدثان الا ان معلمة الفتاة شاهدتها تقف مع الشاب ، ولحظتها جاء لها خاطر مدفون ، فأحست بلذة الانتقام ٠

اتجهت نحو البيت والدم يغلي في عروقها ، وهي تمشي بكامل مشيتها القصيرة ، كبرميل قمامة مملوء ٠

وصلت الى دارها فلم تحاول ان تدخل لترمي حقيبتها وترتاح بل أصرت على ان تقف في البهو تنتظر الفتاة القادمة ، وهي تشد على أصابع يديها ، وتشد فكها الاسفل ٠ لن تهدأ سيدة البيت التي كانت قبل قليل عند اطفال مدرستها ، تصول عليهم فتعنفهم ، وتكاد من صراخها تدمي أصابعها من غرز الصوف ، وهي تضغط على حنجرتها الضيقة فتنتفخ اوداجها ٠

دخلت رشيدة على السيدة الواعية التي اقتربت منها اكثر فأكثر ، وكأنها تخيلت نفسها امام طفل بريء تريد ان تصفعه لتربيه كما يحلو لها فينطلق لسانها الثقيل :

– ماذا كنت تصنعين مع سعيد ؟ وماذا كان يبغي منك ؟ اهكذا تمضين الوقت في غيابي ايتها اللئيمة ؟ ألا تحسين بشيء من الخجل عندما تقفين مع هذا الشاب سيء الطوية ؟ كنت أظنك خادمة محترمة ٠٠ اسمعي سأسمح لك هـــذه المرة ، فاذا عدت الى مثل ذلك سأخبر والديك ٠ اذهبي

واغسلي الحمام ، ثم نظفي هذا البهو المتسخ الذي يشبه وجهك ، و ..

ـ غسلت الحمام في الصباح وكذلك البهو .

ـ انت كاذبة ، لا يوثق بكلامك ، فسلوكك مشين ، قبيح وبعيد عن الحشمة .. تستغلين جمالك فتحاولين ان تلتصقي بالشباب .. وعلى أي حال فان جمالك ساقط مثل أخلاقك .

قامت رشيدة بما أمرت به ، وارتفعت برودة الحمام في ليالي كانون ، ونامت الخادمة بحمامها الذي لم يزدها جوه الا سعالا ، وارتعاشا .

تتوارد الاصباح في برودتها والسيدة ماضية .. فتخرج عن طور الانسانية وتتمادى ، وتتفنن في العقاب فتعامل خادمتها وابنة جلدتها بأبشع ما يجربه الرقيق في ايام نسي العالم فيه شر العبودية .

ويعاود الانتقام القلب الداكن ، وتندم السيدة لماذا لم تخبر والدة الفتاة بالفضيحة الكبرى ! .. مهلا ستقع مرة أخرى في يدي .

غربت أيام وهدأت الخواطر ، ولكن قلب المرأة بقي متيقظا كأنه يستحث الدقائق فيتعجل اللحظات . وفي فترة بعد الزوال يقع المحظور . اعترض سعيد فتاته ليتحدث معها ،

وغاب عن ذهنها ان المراقبة تلاحقها بعين متربصة ومتمنية ..
وبعد ان قضت الفتاة شراء الحوائج من السوق عادت ادراجها
استقبلتها مربيتها الجديدة ، وبدأت تكيل لها التهم جزافا ،
انطلقت بكلامها المعهود ، وبنفس القوة والمتانة ، فينبعث كلامها
من جوف معدتها العميق كصدى ثقيل يتردد من اعماق دهليز
رطب مظلم ، فيزداد صوتها غلظة ، ويلذ لها ما دامت الفتاة
صامتة واقفة ، مسمرة على الجدار وكأنها مصلوبة تستغيث ،
تنزل قطرات دموعها كبيرة متسارعة على أديم وجهها الندي .
تصمت فتغيظ ربة المنزل ، وتبدأ تلك من جديد .. مذنبة ،
قبيحة ، وتبكي أيتها الخادعة ، لم تسمعي ما قلته لك في المرة
السالفة وكأن كلامي لا وزن ، ولا قيمة له .. اعتبري نفسك
محرومة من العشاء .. ومن الغطاء ايضا هذه الليلة .

وفي الحمام توارت رشيدة مع سحب المساء وتحت شبح
الليل الداعر ، تتحدث بعبارات مختلفة .. ما الذي حدث
لهذه المرأة ؟ لماذا تعاملني كما لو كنت عدوة لها ، وهل هناك
جريمة عندما أقف مع سعيد ؟ لماذا تعيرني بجمالي ..
ولكن ..

مضت تلك الليلة وسيدة البيت تتقلب في فراشها ، والحقد
يتلاطم بين حنايا صدرها فيملأ عليها قلبها حتى استولى عليها
النعاس وبعد وجبة الفطور الزوجين والاولاد دفعت الزوجة
لرشيدة فتات الخبز الباقي ، وتهم بالذهاب الى مباركة ، الا

ان الحظ حالف الزوج هذه المرة ، واستطاع المسكين ان يقنعها بالتريث ، وعندما دلف المساء ذهبت الى أهل الفتاة ، وكان عندهم عاشور ، فلم تنتظر ولم تؤجل مشروعها ٠٠ أفرغت كل ما في جعبتها واضافت عليه بما تمليه ظروف النقل ٠٠

سمع عاشور كل شيء فتهلل وجهه ، وراح يلعن سعيد واليوم الذي جاء بهؤلاء الشباب ٠ وبعد ان أفرغ ما في نفسه هو الآخر ، نهض فعمله في المساء ونهاية اليوم ليست بعيدة ، وبقي الامر في أغواره ، أما الحاج ومباركة فقد تأثرا لما سمعاه، وتألما كثيرا ٠٠ ان الفتاة ليست بعيدة عن قعر الهاوية في نظرهما ، بل هي قريبة جدا ، فعالم الرذيلة قد يلفها فيدمرها٠

جاءت رشيدة باسمة ، تتجول في جنبات الدار ، وغدائر شعرها بادية من تحت اشارها ، نظرت اليها مباركة قائلة ٠٠ هل صحيح يا رشيدة ما سمعناه عنك ، وعن سعيد ؟ لماذا يا ابنتي يحدث ذلك ولماذا تلتقين به ؟ صمتت رشيدة ، وشعرت وكأنها تقع في هوة سحيقة ، وتضيف مباركة ٠٠ عليك الا تعودي لذلك مرة أخرى ٠ نظرت الفتاة الى ما حولها فوقع بصرها على الحاج وهو مغمور في جلبابه ككثيب رملي يقاوم الرياح ، رأت انه قد تحول الى أفعوان ساخط رغم صمته ٠

ذهبت رشيدة الى خدمتها ، انها في ذهن الحاج قد تغيرت كثيرا ، وأصر على أن حياة المدينة أثرت في نفسها ، فالشباب لا تخلو منهم طريق ولا تسلم من عابثيهم واحدة ، وهنالك

عيار الليل ، ولكن ماذا يصنع ؟ وما هو الحل طالما تعدت رشيدة السابعة عشر ، فهل هناك احتمال للتأخير ؟

انسرب الحاج بذهنه الى تيار هائل من الذهول ومباركة مطرقة ببصرها اليه ‥ لا حاجة للوجوم الطويل ‥

تضايقت الزوجة ، وتبدو الفكرة في مخيلة الرجل ويماطلها يقلب الرجل حبات مسبحته بسرعة ، ثم يستجمع أنفاسه ويستدير ناحية الزوجة انها ما زالت تحدق في وجهه ‥ انها ليست فكرة شائنة ‥ سيقولها ‥ سيذكر جزءا منها :

– تعرفين نهاية الكلام عن رشيدة يا مباركة .

– انني معك يا حاج ‥ موافقة ولكن ممن ؟ هل هنالك شاب من معارفنا في القرية ؟ هل يوجد من نعتمد عليه في ذهنك ؟

– لا أدري ‥ ولكن لا حاجة للزمن ان يعود ‥

ويسكت الاثنان ، ويلفهما صمت المساء بوشاحه ، فيتركان الموضوع حتى الصباح .

وعندما انبلجت اضواء النهار بعد صلاة الفجر ، استمر الزوجان في موضوع الامس ، حتى أوغلا فيه .

قرب وقت الزوال ، وجاء عاشور مبكرا ، ويبدو في ذهنه شيء .. كأنه يريد ان ينشط بما في داخله ، ليصل الى نتيجة - يجلس بعد الترحيب ، ويبدأ حديثه مع الحاج علال قائلا :

- أراك يا حاج حائرا ، مرتبكا .. آه ما أجمل زماننا .. يوم كانت المرأة تحشم[1] من ظلها .. كانت مؤدبة يوم كانت في القرية ، وكانت صورة عنك يا حاج علال .. ولكن عندما غاب عنها اشراف الحاج راحت تضيع .. صحيح ان حياة المدينة أفسدت كل شيء حتى رشيدة .. سامحها الله .

- تغيرت رشيدة يا عاشور ، وراحت تتشيطن .. ومن كان يصدق بان الدنيا ستؤثر فيها ؟ غريب ذلك وعجيب ! .. ان تلك المعلمة لا تكذب ، فهي أم لاطفال ، وزوجة لموظف مثلها - وتذهب كل يوم في الصباح ، ولا تأتي لاطفالها الا بعد الزوال .. حتى في ايام البرد ، تذهب وتتحمل مشقة الطريق لتربي ، وتعلم اولاد غيرها .. كم هي كريمـــة ومسكينة .. انها لا تكذب .

- لماذا يا حاج تكذب تلك المرأة العاقلة .. آجرها الله خيرا .. انها لم تذكر لكم كل شيء . ويشتد الحاج علال في

---

(١) تخجل .

جلسته ، فتظهر آثار ذلك على سحنته فيخاطب جليسه :

– هل عندك شيء غير ما ذكرته تلك المرأة ؟

– لا شيء .. لا شيء سوى انني كنت أشاهد رشيدة مع ذلك الولد القبيح ، كنت اراها معه كل يوم حتى في السوق ، وما عليك الا ان تتدبر الامر .. ولا تنسى ان تطلعني على كل شيء ، هداك الله .

– سنحاول .. وانا لن أخفي عنك شيئا .

– هـذه الدنيـا غريبة .. انها لا تخلو مـن التعب والمشاكل .. الا تراها يا حاج علال معي ؟

– كيف تراها معك ؟ هل حدث شيء لك أيضا ؟!

– كيف أراها يا حاج رحم الله والديك ، وانا وحيد في غرفتي ؟ .. ان صديقك عاشور سجين همومه بعد هروب زوجتي الاخيرة لانني رجل مستقيم ، واطلب من الله يا حاج ان يبدلني خيرا منها ، فحظي سيء في النساء حتى هـذه اللحظة .. سيء بالزاف ولا ادرى علاش(٢) .. انني على يقين بان الحظ كل شيء في الحياة ، فرغم انني أهب الزوجة كل ما أملك ، وأوفر لها احسن طرق العيش والدلال .. ولكن الانسان الصادق ليس له زهر في هذا الزمان العاثر .. آه يا أخي .. نرجو من الله ان يهدينا .

---

(٢) لماذا .

كان عاشور يتحدث ورواسب الكيف تملأ عليه زوايا صدره ، ولكنه كان حذرا من ان يكتشف صديقه شيئا عن خلال تيار انفاسه .

ودع عاشور ، فالمساء أخذ يقترب ، والذهاب الى الخدمة الليلية ضروري .

راح يناجي نفسه .. ان العمر لا يهم ، والفارق الوقتي كذب ، ليس بيني وبينها ازيد من ثلاثين عاما الا عد الاصابع، انها لذيذة .. ستكون لي ، فالحاج ما زال معي بخلاف غيره من رجال القرية الذين هربت منهم .. لعنة الله عليهم .. كانوا يضايقونني في وضح النهار ، فلم يتركوني استمتع مع التعميرة التي تساوي عندي الدنيا ومن فيها ، لن اترك الحاج ، انه غير بعيد عن هاوية الموت .

زوجت له هواجس الكيف بان علال سيموت قريبا ، ومعه بنفس اليوم مباركة ، وسيرث الدنيا ومن عليها ، انه أقرب انسان للعائلة فهو الصديق الوحيد .. فله حق مقدس يجب ان يصان ، عاجلا ام آجلا .

وفي اليوم التالي جلست مباركة مع زوجها بعد ان ترك عربته الخشبية في السوق ويقومان باجترار الامس . اتفقا على تزويجها من اي شاب في الدرب ، او الحي الذي يعيشون فيه ، اذا تقدم وطلب يدها منهما ، او من الحاج ، او حتى من مباركة .

كان عاشور يتجول في السوق الرئيسي بالمدينة ، وبينما هو يتسكع يقابله رجل يعرفه معرفة ضئيلة ، اراد ان يكون عاشور واسطة خير ليطلب رشيدة من الحاج علال لابنه انه يسكن في الحي القريب من حي الحاج ، وعاشور صديق الحاج فلا واسطة مخلصة سواه ، ولكن عاشور رد عليه بسرعة عجيبة ، وأقنعه بان الفتاة سيخطبها رجل بعد ان اتفق مع والد الفتاة سرا ، وبت في الامر ، فما عليه الا ان يبحث عن فتاة اخرى ٠

جاء عاشور بعد الظهيرة ، وقد أخفى أداة الكيف والتعميرة في جيوبه العميقة منذ كان قبل قليل في الطريق ٠ دخل الرجل على صديقه ، وجلس بعد الترحيب الدافيء من الزوجين، فيخاطب الحاج :

– وما هي آخر أخبار اليوم يا حاج ؟ فأنا أراك هادئا ، وأفضل مما رأيتك عليه أمس ٠

– ايه يا عاشور ٠٠ ماذا تتوقع من أخباري ؟ لا تغير ، ولا شيء سوى الملل ٠

– لا تغضب يا حاج فالفرق كبير بين أيام زمان واليوم ، ان ايامنا التي مضت لن تعود ٠٠ فهل رأيت أحسن منها ؟ ٠

– آه يا صديقي ، لا تذكرني ، دع النفس وما فيها ٠ ان زماننا الذي فات لن يرجع كما قلت ، كان طيبا ، وما

زالت حلاوتـه في أسناني .. مذاقـــه مزيان(١) .. زوين بالصح .

– كنا في القديم ننظر الى الامور بعين العقل .. ننظر الى المرأة باحترام وعفة ، ونحافظ عليها ، وهي تحافظ عـــلى الجميل ، وترده مضاعفـــا ، اما اليوم فأنت ترى الشباب وقبحهم ، وحيلهم المفضوحة .

– ان الشباب يختلفون عنا كثيرا في كل شيء ، بل وينغصون علينا عيشنا .. مامزيانين !

– نعم يا حاج كما تفضلت ، انهم عكسنا بكل صغيرة وكبيرة لا وفاء عندهم ، ولا صدق ، ولا زمام . يعجبك الواحد لحظة ، ويسوءك العمر كله ، فلا تثق بأحد من الشباب .. عفاريت اليوم مهما تبجح الواحد منهم . وتتدخل مباركة في جوف الحديث قائلة ، وهي تقدم ابريق الشاي :

– كل شيء تغير .. هل كان الشاب يجرؤ على الكلام مع البنت في عرض الطريق دقيقة واحدة . وتقفز ابتسامة عريضة من أشداق عاشور الى شفتيه المهترئتين فتذوب على وجهه الشاحب ، ويرد في الحال :

– تقولين دقيقة واحدة .. بارك الله فيك ، الشاب منا لم يستطع ان يقف لحظة واحدة ، اما اليوم فان الشاب يلتقي بالفتاة ، ويتكلم معها الساعات الطوال ، وعلى مرأى من الناس

(١) جيد .

والجيران ، بل وقد يختلي بها ، ولا يخجل ضميره او وجدا
من ذلك ·· وحتى لا يخاف الله ·

- هذا صحيح يا عاشور ، انه ما حدث معنا ، فرشيد
التي ربيناها على الادب والحشمة ما ان ابتعدت عن انظار
حتى راحت تصنع الافاعيل · التقت مع سعيد دون ان تخبر
بشيء ، من كان يتوقع هذا ويصدقه ·

- لا تقولي يا مباركة التقت معه ، حدث اللقاء أكثر م
مرة ·· مرات ومرات ، وأنا أسمع وأرى في وسط النهار
ان هذا يسيء الى الفتاة ، واكثر من ذلك يسيء الى الحاج ب
ويسيء اليك انت ، ولا اعرف علاش يستمر هذا الشيء ·

- وكيف هي سيرة هذا الولد الذي يتعرض لبنتنا ؟

- انني أعرفه أكثرمن والديه ، ولد لا هم له الا مقاب
البنات ·· ان الكل يعرفه ·· ما مزيان ·· والله القسم ·

ويهدأ الثلاثة ويغرقون في صمتهم ، وهم يحتسون الشا
ثم تستأنف الزوجة حديثها :

- عليك يا حاج ان تنبه أهل سعيد حتى يمنعوا ولده
من التمادي في تصرفه مع بنتنا · فيجيبها الزوج :

- وماذا أقول لأهله ؟ هل أقول ابعدوا ابنكم عن الدر
يا ناس ؟ كما ان رشيدة لا تتحمل اهانة ولا مضايقة · وي
عليه صديقه بكلام انساب من فمه :

ـ مسكين أنت يا حاج ، ان المؤدبات اصبحن اليــوم بضاعة نادرة ، فالتلاقي بين الشباب والبنات جاري في كل زاوية ومنعطف ، انت لا ترى ما اراه ، قلت لك انزع ايام زمان من رأسك فبنات هذا الجيل يختلفن عن غيرهن في أيامنا السالفة ٠٠ والمهم يا حاج هو زواجها ٠

ـ صدقت يا أخي فهذا ما توصلت اليه في حديثي مع مباركة ، واتفقنا على الترحيب باي انسان ولكن المشكلة تبقى في اننا لا نستطيع ان نقوم بالبحث عن الزوج من جانبنا حتى لا تهون بضاعتنا فترد الينا بسرعة ٠

ـ آه يا حاج كم لك من آراء صائبة ٠ آتي اليك على الدوام لآخذ الحكم والاقوال الثمينة والتجارب من لسانك ، فكل ما يخرج من فمك هو مثل كبير يجب ان أضعه بين عيني ، وما تذكر صادر عن طول تجارب ، كم أنت عزيز عندي يا حاج ٠٠ والآن اسمح لي بالذهاب ، فوقت الخدمة غير بعيد ، وسأراك ايضا في الغد ٠

ـ قل يا عاشور ان شاء الله ٠

ـ لا تؤاخذني يا حاج لقد نسيت ، لعنة الله على هذا الوقت فما أكثر ما ينسينا ، سنلتقي ان شاء الله ٠٠ استغفر الله العظيم وأتوب اليه ٠

نهض عاشور واهنا ، فساقاه وأعصابه تبدو قد تحجرت

من طول الجلوس ، فأثار ذلك حفيظة الحاج الذي تساءل قائلا :

ـ ما لي أراك ياعاشور تقترب من الشيخوخة ، فيرد عليه صديقه بسرعة متناهية بصوت انقض على دماغ الحاج كالبرق : رحم الله والديك يا أخي ، فانا أصغر منك بكثير ، فعمري لم يتعد الخامسة والاربعين الا قليلا ، ولكني لم انم في الليلة الفائتة ، وانت تعرف يا عزيزي ان الرجل العازب يمضي ليله بالتفكير ٠ هذه امـرأة تعجب وهذه امـرأة لا تعجب ٠٠ وهذه وهذه ٠٠ ايه نسأل الله التوفيق ٠

لقد خصم عاشور من عمره تسعة اعوام تواضعا ، وهذا لا يهم ما دام لا يوجد له اسم في سجل الازدياد او الميلاد ، كما ان صديقه لا يعرف عمره تماما فهو لم يرتبط به الا في وسط العمر ٠ ودع الرجل وذهب الى عملـــه وهو يستغفر الله ، ويكرر ، ويطيل بصوت يخترق جمجمة الحاج علال ٠

- ٧ -

بقي الزوجان يتحدثان وكل منهما يتثاءب ، توضأ الرجل وتبعته الزوجة ، وأقاما صلاة المغرب ، وبعد وجبة العشاء اتجها الى مخدعهما ، وبعد هنيهة يسأل الرجل زوجته عن ما خطر له ، وملأ أسماعها ، فغرقت في دوامة من التفكير ٠٠ وبعد سكون قليل تجيبه :

– هل يصلح زوجا لرشيدة ، وهو في عمر والدها ؟ ولماذا لا يكون نصيبها من رجل قريب من سنها ؟

– ولكن ما زال فيه الشباب ٠٠ انه رجل ، وهو عاذب كما انه أفضل لها من شاب يتزوجها ويفكر بغيرها ٠

– انني ألاحظ في الرجل كثرة السعال ، فهل يخلو من تعاطي ٠٠ ؟

– لا أصدق ذلك يا مباركة ، انه يكره المخدرات ، ويلعنها أمامي ، ثم انني لم أره يتعاطاها ولو مرة واحدة طوال عمري، انني لا أصدق ذلك ، أما أهل القرية فقد تحاملوا على الرجل ٠

– وهل تخبرها بالامر ؟ حتى تكون على بينة ، فهي بالغة منذ أعوام وليست صغيرة ٠

– لا ضرورة لذلك فنحن أعرف منها بمصلحتها ومستقبلها بعد الذي حدث ، وسنخبرها عندما يأتي العدول ٠

– الآن تذكرت ٠٠ هل طلب يد الفتاة منك ؟

– ما زال الامر اقتراحا بيننا ، وسنعرضه عليه فالرجل يبحث عن زوجة ، وهو جاد في ذلك ٠

ترك الاثنان الموضوع الى حين ، وراحت الزوجة تعد العجين ، وتقوم ببعض الاشياء البسيطة ، ويبقى الحاج متكئا على ذراعه الأيمن ، ومسبحته في يده الاخرى ، وتسرقه اغفاءة

ضئيلة لم يخرجه منها الا صوت عاشور الذي جاء وفي رأسه خواطر كثيرة ٠٠ قرع الباب ونادى بأعلى صوته ، فأجابه الحاج :

ــ ادخل ولا تقرع الباب ٠٠ فعلى الرحب والسعة ، ولن يدخل علينا من هو افضل منك ، وما ان تربع عاشور على الفراش حتى أحس بان الجو منشط ، وغاية في السعادة ، كاد ان يصارح الحاج بمكنون نفسه دون انتظار ولكنه احتفظ بتوازنه قليلا حتى تهدأ الاعصاب الناشطة ، وبقي الامر واضحا في عقله الباطني ، حتى بدأ الحاج الموضوع بنفسه قائلا :

ــ لاحظنا يا عاشور انك تبحث عن انسانة ، فما رأيك بالزوجة التي هي أقرب من شربة الماء اليك ؟

ــ ومن هي يا عزيزي الحاج ؟ !

ــ انها رشيدة التي تعرفها ٠٠ سمع عاشور كلام الحاج، فضحك حتى علت ضحكته على غير عادته ، فثارت خلايا صدره المتعب بالسعال ، ثم هدأ وخفت ضحكته قليلا ، قليلا ، بعد ان وصل الى درجة الاشباع ثم سكت برهة ، وتوجه الى الحاج قائلا :

ــ لن أخالفك يا أخي ، فالأمر ما ترى ، وان كان في ذهني بنت أخرى غير رشيدة ٠

ـ من هي يا عاشور ؟ !

ـ ليس هناك مجال لذكر اسمها ، وكما قلت لك انت أخي ، وصديقي ، والأمر هو ما ذكرت ، وسأقبل برشيدة ما دمت نطقت بذلك ، فأنت كلك بركة يا حاج .

ـ انت تعجبني يا عاشور ، لقد كنت في أذهاننا منذ وقت ، ولا أخفي عليك ، وليس هنالك من هو كفؤ للبنت سواك ، جاءتك رشيدة كلها فهي لك ، وتشترك مباركة بالحديث قائلة :

ـ اعطاك الحاج وعليك القبول ، ان رشيدة احسن اليك من البنت التي تنوي خطبتها .

ـ قبلت يا مباركة .. قبلت بالحق .

وهب الحاج علال رشيدة لعاشور خالصة ، بلحمها ، وعظمها ، ودمها ، ولوجه الله تعالى ، وليس في ذلك جدال ولا نكوص .

ذهب الحاج الى محكمة التوثيق ليأتي بالعدول لكتابة وثيقة الزواج حتى يتم كل شيء بدون انتظار .

بقي عاشور جالسا وحده ، فتواردت عليه افكاره .. آه يا حاج انك كريم ، لقد توقعت عطاءك منذ بدأت افكر .. منذ ايام القرية ، واليوم جاء لي ما أردت .. آه يا دنيا آه .. وينفجر الرجل بضحكة عاتية مترددة الاصداء ، ثم يهدأ .



دخلت الفتاة ، طرحت التحية على الرجل وهي تبتسم ، رد عليها التحية ، ونهض من مكانه ، ثم قبض على يدها قائلا :

ـ تعالي ٠٠ تعالي يا حلوة ، سنتزوج ، أنا أفضل لك من سعيد ٠٠ تعالي ، ثم يشد الفتاة الى صدره وهي تضج منه ولكنه شحذ همته ، ويفرغ كل قواه ليقترب منها بوجهه فيقبلها بصعوبة ، فينغرز شعر وجهه الشاحب في وجهها الهادىء اللدن ، فتحاول دفعه قائلة :

ـ أغرب عن وجهي ، لا تقترب مني أيها الرجل العابث٠٠ هرم وعائب ٠

ـ تعالي ، لا حياء في الدين ٠٠ بعد قليل سنتزوج ٠٠ لا حياء في الدين ، أنا أفضل من الذي في رأسك ٠

ـ احشم ايها العائب من ان تذكر الدين ، فرائحة الكيف تملأفمك ، ٠٠ انني أكرهك منذ صغري ٠٠ لعنة الله عليك ٠

ـ لا يهمني ما تقولين ، يهمني أن أتزوجك ٠٠ انه حلمي القديم ٠٠ تحقق ٠٠ تعالي أقبلك مرة أخرى ٠

وفجأة يسمع عاشور صوت أقدام مسرعة انها مباركة قادمة ٠٠ وتدفعه رشيدة فيرتطم بالجدار ، ويرتد الى مقعده وهو يلهث ويسعل ، ثم يمسح لعابه ٠

دخلت الزوجة ، ثم تبعها في الاثر الحاج ، واثنان من العدول ٠٠ وتتم الصفقة ، وتعرف الفتاة كل شيء ٠ لم يكن

هناك شروط مكتوبة تلزم عاشور بشيء في المستقبل القريب، ولا المستقبل البعيد ، لم يأخذ الحاج شيئا ولم يربح من جراء ذلك سوى انه ظفر بصديقه عاشور .

اطمأن في قرار نفسه على مستقبل الفتاة مع رجل يثق به، ولا يبغي الحاج من وراء عمله الا اسعاد الفتاة مع الرجل الذي ظلمته زوجاته .. وخاصة زوجته الاخيرة التي هربت عن النعيم .

عقد العدلان وثيقـــة الزواج بعناصرها ، وشهودها ، وهمس أحدهما باذن الحاج ، فيجيبه الحاج بانها لا تمانع في ذلك .. ان الزواج في مصلحتها . وانتهى كل شيء ، ولكن الحاج انفرد بعاشور خارج الدار بعيدا عن الاهل ، وتكلم الاثنان كثيرا ..

كان الحاج يلقي أقواله ، يلقي شروطا من لسانه لتنصب على اذن عاشور الذي كان يهز رأسه ، ويحنيه ناحية الارض موافقا على كل شيء . يخرج او قبل ان يخرج من شفتي محدثه .

تكلم الحاج واسهب في حديثه عن الماضي البعيد منذ أيام القرية ومنذ ان كانت رشيدة في لفائف الطفولة ، وفي النهاية وضع عاشور يده في يد صهره ، وشد على يده قائلا :

– اطمئن يا أخي ، وكن على يقين بانني سأعتمد على كل ما ذكرته لي . ان وصيتك سأنفذها تماما ، وسأبقى على

عهدك ، ولن أخون الأمانة ، وأقسم لك على ذلك ، سأضع رشيدة في قلبي ولن أفرط فيها ، انها تجارتي يا حاج ٠

ـ بارك الله فيك يا عاشور ٠٠ انني أعرف بانه لا حاجة لتذكيرك ، ولكن اعذرني يا أخي ٠

ذهب العدلان ، فضاقت الدنيا في عيني الفتاة رغم الفضاء المتسع الارجاء ٠٠ شعرت بخنجر يسقط على صميم دماغها ، ويهبط الى قلبها ، احست بطعم الحياة الجديدة ٠٠ وتراءى لها بان البيت راح يرزح تحت ظلام عابس مترامي الابعاد ، وظلم مقيت ينبعث عليها من كل زاوية ٠

جاء الليل فينقلب وجـــه البسيطة الى سجن ضيق ، وأشباح ، ورموز مهزوزة مرتعشة ٠٠ شعرت بان جسدها مصفد بأغلال ثقيلة لا تقوى على مقاومتها او حملها ، فتهزل الحياة ٠٠

انطلقت دموعها سخية على وجهها النظر الصافي الذي لم يقنع بالارتواء وسط انفاسها اللاهبة ، فتنزوي بركن ضئيل من البيت وبصرها ينتقل في الاجواء من السقف الى الارض ، ومن الجدران الى الجدران ، ويرتد بصرها الى أظافر يديها فيستقر ، وتجهش بالبكاء حتى تبتل أطراف ذراعيها وحنايا صدرها ٠

يحاول الجميع تهدئتها دون جدوى ، فتسفز أعصاب الحاج فيخاطبها :

ـ لماذا تبكين والزواج هو نهاية كل بنت ؟ انه أمر لا مفر منه ، ولا رهبانية عندنا ، واذا لم تتزوجي اليوم ستتزوجين غدا ، وعاشور هو الرجل الكفؤ ٠ ويتدخل عاشور بصوت هامس في أذن الحاج :

ـ اتركها يا حاج ، انني أعرف نفسية رشيدة ، انها تبكي من شدة الفرح ، وأريد منك ان تدعو لنا بالخير والسعادة ، اترك رشيدة ولا تناقشها ، انها ستضحك بعد قليل في داخل نفسها ، سأغمرها بالسعادة اكثر من أية زوجة عاشرتها في حياتي ، ٠٠ انما لا تنسى الدعاء لنا ، فأنت رجل صالح ، كلمتك عند ربك مسموعة بلا شك ٠ ويأخذ الحاج بالدعاء حتى كأنه لا يمل ، ولا يتعب ٠

ويفرغ الاثنان من حديثهما ، ثم تتركهما مباركة وتنفرد بوحيدتها لتهدىء من خواطرها ، وتحاول ان تقنعها ٠٠ بان عاشور سيهبها جل عنايته ، وسيهتم بها كثيرا ، وتسهب مباركة في حديثها ٠٠ انه سيوفر لـك كـل ما تحتاجين ، وتشتهين من العيش الرغيد ، وما عليك الا ان تعترفي لـه بحقوقه كزوج وتحترميه ، لن يدع التعب يتسرب الى جسدك ، لن تحصدي كما كنا نحصد ، ولن يطلب منك شيئا الا البقاء في دارك فتعيشين هانئة قريرة العين كما يحلو لك ، ولن يعكر صفوك أحد ، فأنت سيدة نفسك ، وما عليك الآن الا تقبل الامر ، والاعداد للمستقبل ، والتوكل على الله ، واذا كان

عاشور أكبر منك سنا فهذا لا يهم اذا وجد الاتفاق ، لم تدر الفتاة بماذا تحتج وماذا تقول ؟ مرت كلمات سعيد عليها ، مرت الذكريات القريبة ، سكتت قليلا ، وجفت دموعها التي نضب منبعها ، ·· نظرت وهي تقابل حبيبتها مباركة الى غيوم الغرب المتراكمة فلم تجد شيئا ، فينقلب بصرها الى حفنات التراب والحصى ·

بدأت مع نفسها ·· كيف سأترك ذلك الشاب الذي لقيته وارتبط بروحي ، وعشت معه ساعات هي العمر الذي اتذكره ·· كيف أراه ؟ وماذا اقول له ، وقد اسكنني في روحه ؟ انني سأراه ، وسألتقي معه ، ولكن كيف أنقل له الخبر ؟ لا أدري ·· فهل بقي أمل ، ام تحولت خواطرنا الى عالم المحال ؟ هل أدفن ذلك الامل في أغواري ؟ ·· وهل أسلم من المنغصات اذا عادت الذكريات ·· ؟ وضعت مباركة يدها على كتفي وحيدتها حيث اعجبها السكون ، فقبلت رشيدة على جبينها ، وهمست في أذنها ·· مبروك يا ابنتي ، ·· اذهبي وودعي معلمتك المحترمة ·

- ٨ -

كان سعيد يمني نفسه بارتباط وثيق مع رشيدة ، ولن يفك عرى ذلك الا نهاية العمر · كان الشاب يناجي نفسه على الدوام ·· ان حبنا قوي متبادل ، بعيد عن الترويج

والزيف ، ابعدته عن ابصار الآخرين ، وسأبقيه مدفونا في سري ٠٠ انها هي الدنيا ٠٠ اجل سأبقيها في أعماقي ٠

قدم الشاب طلبا للوظيفة ، وجاءت النتيجة ٠٠ انه من موظفي دائرة الفلاحة ٠ فرع مراقبـــة السدود ٠ سيفاجيء رشيدة بذلك عند خروجها ثم يخاطبها في المستقبل المنتظر ٠. انه سيطلب من والده ان يذهب الى الحاج علال ٠ ولكنه تردد وماطل ، فهل يخبر والده اولا ام يأخذ رأي رشيدة في الأمر ؟ وبعد فترة يقرر ان يفعل الشيئين ٠

ذهبت الفتاة لتنهي عملها ، انه يوم الختام ٠٠ نهاية مطاف حياة الحمام الضيق الرطب ، وفتات الخبز الباقي ، ورغم ذلك فان رشيدة تمنت البقاء ، وليت خدمتها تطول عند سيدتها لتبعد عن الشبح الدخيل الذي يغطي شعره الابيض بغطاء ضاف محكم ٠

دخلت رشيدة على سيدتها ، واطلعتها على رغبتها في البقاء ولكن لا بد من الرحيل ٠٠ وتقبض الفتاة على يدي تلـــك الانسانة فتقبلها بعنف ، وتصل الفتاة الى الارض لتقبل أقدام سيدتها ، وتجهش باكية ، ودون ان تدري ربة البيت أقبلت على خادمتها فضمت الجسد المرتوي الى صدرهـــا ، فطبعت بعض القبلات على جبينها ٠

راح الزوج يجول بنظره بين شجيرات واعشاب الزينة عند الشرفة ، عرف ما حدث ، وتساءل مع نفسه ٠٠ ألم يجدوا غير عاشور ؟ !

حاولت السيدة ان تهدىء من روع خادمتها ، وتمسح دموعها ، وتنسي دموعها هي ، وتسأل :

- متى سيكون الزواج ، .. شعرت رشيدة كأن سكينا حادا اخترق جسدها ، فأجابت ونظرها نحو الارض .

- لا أدري متى سيكون ..

- عليك ان تخبريني قبل المدة بقليل حتى أقدم اليك ما اقدر عليه .

- بارك الله فيك يا سيدتي .

التفتت الزوجة الى ما حولها فجمعت بعض ملابسها ، وقطعا من الصابون ، وحوائج اخرى بعلبة كرتون ، وضعتها على رأس الفتاة ، ثم ودعت الخادمة اسرتها ، واحدا واحدا .. تقبل الاطفال ، ثم تعود اليهم ، ثم تتركهم جميعا يغرقون في صمت المساء ، وهم متقابلون ، كل يحدق بوجه الآخر .

انسلت رشيدة من البيت مترددة ، متكاسلة كأنها تقبل باحداقها سقوف المبنى ، وشرفاته ، وجدرانه ، وحتى ارضه. مشت في عرض الطريق ، وقد أحست وهي تمشي بدوار عنيف يكاد يعميها عن الدرب . كانت تمشي ثم تراه ، ان قدميها لم تقدرا على حمل جسدها ، شعرت بارتخاء يجتاح مفاصلها ، وألم يضغط على دماغها ، دنت منه .. قابلها بابتسامة عذبة ، لكنه رآها ذابلة ، ومقطبة الوجه .. وما هو الشيء الذي تحمله على رأسها ؟ ويسألها :

- ما بالك يا رشيدة ، هل أنت مريضة ؟ .. نظرت الفتاة الى وجهه ، فامتلأت عيناها بالدمع ، وبدأت شفتاها ترتجفان .. شخصت ببصرها اليه .. ماذا جرى لها ؟ وهل تريد مساعدة مني ؟ ! هل مسها شيء من .. ؟ هل هو المرض ؟ فالمرض يثقل على النفس ويخدر الاعصاب .. وينطلق صوتها الهامس .. لقد اعطوني لعاشور ..

جال الشاب نظرة في وجهها ، تسمر جسمه في مكانه ، وراح يتكلم على غير هدى ، ويتلعثم .. تحجرت الكلمات على شفتيه ، ان السماء هي غير السماء ، والارض غير الارض ، وحتى الغبار غير غبار الامس ، بلع ريقه وسأل :

- كيف حدث ذلك ولم تخبريني ؟

- حدث الامر بسرعة دون علمي ، كتبت وثيقة الزواج وانتهى كل شيء .. ليست الدنيا لنا يا سعيد . غادر كل منهما مكانه ، وكل يلتفت الى الوراء ، فيرمق صاحبه ، وبعد الاستغراق في مناجاة الابصار يمشي كل في طريق .

يتجه سعيد بخياله الى كل مكان .. لقد تلاشى كل ما بنيته ، وذهب ادراج الرياح ، ولكن هل استطيع لقاءه فأقنعه ان يبعد عن طريقي فأنا احبها بيقيني وهي كذلك ، واتفقنا .. لن يقنع ، فاذا بسطت الامر بين يديه فانه سيتخذ من ذلك وسيلة للانتقام منها مع الايام ، ويتخذني حجة عليها طول العمر ، لن يقبل هذا الشيطان الرجيم .. كيف ظهر لنا هذا

فريت من قمقمه في مثل هذا الوقت ؟ هل أطلب من رشيدة
روب معي ؟ ولكن ٠٠ وتاه الشاب في لجة الافكار والظنون ،
امتلأت نفسه هما وغما ، وتمنى لو لم يكن ٠

منى سعيد نفسه برؤية فتاته ولو في الدرب ، انه لا ينوي
ن ينزعها من وجدانه ، اذا ابعدها من حياته المادية ٠ ذهب
لى والده يطلب منه ان يتخلى عن طلب رشيدة بعد ان قلب
الامر كثيرا ، اراد ان يتريث في ذلك ، ليبحث عن مخرج
لأمله ، ولكن لا سبيل ، ولا مخرج ، ولا دواء ٠٠ ولتذهب
رشيدة بحفظ الله ٠

اقترب يوم الزواج ، فارسلت الفتاة الى سيدتها القديمة التي جاءت لتحضر ليلة الزواج ، وتأخذ معها هدية انتقاها الزوج وزاد عليها ٠٠ ثم تخفي ما في نفسها ٠

وتزف رشيدة الى عاشور الكهل الذي ما زال في سن الشباب ، بلا حفل ، ولا مراسيم ، بالظلام والدموع ، ٠٠ حتى الحناء لم يوضع على قدميها ويديها ، فالحاج علال كان متسامحا مع صديقه ، انه لا يريد ان يحمله مالا طاقة له به ، ما دام قد وعد بانه سيغرق رشيدة في بحر من النعيم لم تره من قبل ، وتفتح وجه الحاج ٠٠ هذا ما تمناه ، ان يجد لوحيدته الرجل الذي يصونها ، ويبعدها عن طريق الألم ، وها هو عاشور ، وسيكمل الاجر ان شاء الله ، وسيكون مضاعفا ٠٠

بقي الحاج في عمله ، ولكنه اشرف على حافة الشيخوخة ، وقد تدنى به العمر ، وزادت اعواد عربته من ثقلهـــا ، فالسنون قاسية على الكاهل الذي أخذ ينحني مع الايـــام والأشهر ، وبدت الآلام تغزوه كل ليلة ، في ركبه وسائر مفاصله ، اخذ يئن ويتثاقل في مشيته ، ويطلب مساعدة مباركة اذا اراد النهوض ، ويجذبه الفراش ، وتشتد وطأة مرض الهرم على نفسه ويبقى حبيسا في بيته ، وكأن النهاية جاءت تقترب ، وتشتد الحياة على مباركة ورشيدة .. تذكر الحاج ان عاشور لم يزره منذ مدة ، فتتوارد عــلى ضميره الشكوك ، فيتأوه الرجل ، ويتألم ، وتمر الساعات ، ويحس الحاج بنهايته ، تذكر رشيدة ولكنه وثق بالمستقبل ، وشعر بلذة صافية تغمر روحه ، فتخلد نفسه الى السكون ، ويخيم على الجميع وجوم هائل ، وترسل مباركة الى عاشور لانهاء ما ينبغي .. جاء الرجل بخطواته برما وهو يتلذذ بانفاس الكيف ، وعندما لم يشاهد الا مباركة ورشيدة اهتم للامر فنهض بالواجب ، وهو يطلب الرحمة للحاج ..

مرت سحابة الحزن والاسى بظلالها ، وفتراتها عـــلى الزوجة التي عاشت ملتصقة برجلها ، ولكنها بقيت مشدودة الى رشيدة التي آلمها فقدان الحاج العطوف ، وأخذت تتردد على مباركة حتى تبعد عن مشاغل الفكر . طلبت رشيدة من عزيزتها ان تؤجر البيت ، تعرضه للكراء وتنضم الى اسرتها الصغيرة لينعم الجميع بالايناس على الاقل ، فيبددون اذيال

الوحدة الموحشة ، ولكن مباركة رفضت ان تترك بيتها الذي الفته ، وعاش فيه الحاج ، واذا كان الانتقال ضروريا فلتأت رشيدة وزوجها عندها ..

- ٩ -

وانتضمت حياة الجميع تحت سقف واحد ، اشتراه الحاج علال بعد قدومه للمدينة وراح عاشور يتردد على بيته الجديد تهلل وجهه ، وأخذ يدخن الكيف ، ويعد التعميرة . تراه مباركة لأول وهلة ، وتنظر اليه ، وتحدق في وجهه فتهز رأسها . وتتذكر الحاج ، وتتخيله بكامل طوله .. وكيف كان عاشور يلعن الكيف ومن يتعاطاه ، وكيف كان الرجل ينافق .. غريب أمر هذا الرجل ...

بدت علائم البهجة تغطي وجه صاحب التعميرة وكأنه أفاق من أحلام قديمة . ان سماءه اليوم ستصفو من جديد . فصديقه انتهى الى غير رجعة ، ولن يتذكره .. انه لم يتذوق اللذائذ .. انه لا يستحق حتى الرحمة .. فليبق تحت ركام الحجارة والتراب . وتسأل مباركة التي لفها الكبر رشيدة عن أيام عاشور فتذكر لها كل شيء ، فتتخمد العجوز نفسها ، وتتناول مسبحة الحاج ، وتكثر من الاستغفار ، فيظهر عاشور بكامل وجهه للعجوز لحظة بعد اخرى ، عندما يأتي في الصباح يترنح في خطواته ، ويهذي بصوته الجاف ، ولعابه يسيل من طرفي فمه ، واداة الكيف في يده اليمنى ، وعلبة الوقيد(١) في

---

(١) علبة الكبريت ـ الثقاب ـ .

يده الاخرى ، وعيناه تقدحان بلون الجمر . يشتد صوته في جفوة على الزوجة ، ولم يشعر بشيء من الاحتشام في حضرة العجوز فتسود الدنيا في عيني زوجته ، وتصغر في عيني العجوز التي اعتنقت مذهب الوجوم بعد ان استولت عليها الندامة وأحست بخيبة المصير لرشيدة .

كانت تصك اسنانها عندما تتذكر الحاج ودفاعـــه ، واختياره ، فتسرح في لجة الكون ، وتتقاذفها تيارات مـــن الهموم ، والألم والحسرة ، وترجع الى نفسها .. رحم الله الحاج علال الذي لازم هذا القبيح الخائب ، خدعنا هذا النذل مدة طويلة ، واقتنص ما اراد ، وها هو اليوم يظهر ، ولا يراعي وجودنا كيف التصق بنا ، وربط مصيرنا بمصيره ، غريب هذا الشيء ! انه ثعلب بالحق ، لا هم له الا ان يتجول هنا وهناك ، وكأنه بلا أهل .

كانت رشيدة في ايام الحمل الاخيرة امام هذا الرجل ، فأشفقت عليها العجوز .. انها بحاجة الى التقبل ، والأخذ بيدها لتشعر بوجودها ، ويستقر الجنين اذا كان في أحشاء مرتاحة . ولكن عاشور يأتي وقت ان يذكره الجوع بالبيت ، وبعد ان ينهي فترة الحراسة في الليل يذهب بقية اليوم الى مقهاه المفضل الذي يجد فيه اقرانه الذين يبحثون .. فيبحث ذلك اليوم عن غير الزوجة ، وعندما يحس بلذة الاشباع ، والنشوة يستقر به المسير الى قاعة المقهى ، فيشرب

الشاي على دخان التعميرة . ثم يتجه الى الدار ليملي بعض أوامره وتعليقاته العفنة ، ثم يعود الى مستنقعه الآسن ، فيبقى في ركن المقهى الضيق الرديء حتى يمل ويرغب في الحركة فيلفه الهذيان بلحظاته ويمشي حيث تهوى قدماه .

دلفت نهاية الشهر التاسع ويقترب كابوس المخاض ، وتلتصق رشيدة بالعجوز ..

ـ انني يا والدتي أتحطم ..

ـ لا تخافي يا ابنتي .. انه الشيء الذي مررت به ، وتمر به بقية النساء . وتضع العجوز ركبتيها تحت صدر رفيقتها ويقبل شبح المخاض ، فتهدىء العجوز من المها ، ويرجع اليها عنف الكابوس وتصيح :

ـ والدتي .. حبيبتي ، انني أموت .. انني أموت .

ـ لا يا حبيبتي ، توكلي على الله .. انكن بنات اليوم تصرخن من لسعة البعوض .. لقد ولدتني أمي وسط الزرع دون معين ، وتقوم العجوز ببعض الجهود والحركات ، وتضغط بركبتيها على أسفل صدر رفيقتها ، فتشعر الحامل بأنهـــا تموت ، وتهمس .. ليتني أموت .. آه ليتني .. ليت خنجرا يخترق أحشائي بدل ركبتي والدتي .. ليتها تضغط لأموت فلا أراه ، ولا ارى ما يربطني به ، وتصرخ بوجه العجوز :

ـ اضغطي على صدري .. اضغطي على قلبي أريد أن أموت .. آه ما ألذ الموت .

- يا حبيبتي ان الله يتلطف بك ، لتتوكلي على الله ..
وبعد دقائق ترتاح رشيدة ، وتتولى العجوز عملية التنظيف ، ثم تساعد رشيدة فتضعها بفراشها .

سمات الأم .. واضحة رغم الشمس الغاربة .. رقتها ، ونعومة بشرتها الكاشفة .. كرمال جزيرة العرب .

أقبل صاحب العائلة فتبشره العجوز بسلامة الزوجة ، لكنه يصمت ، تستغرب فتنقلب على أعقابها . حاولت ان تذكره بشراء بعض المواد الضرورية ، ولكنه تأفف ، وتضايق ثم أعلن افلاسه .

انه لا يملك الا القليل ، لقد وضع في اول حسابه ، وجدول اعماله مؤونة الكيف ، اما عدا ذلك فليس من الاهمية بشيء .

وتجلس العجوز بالقرب منه ، وتنبهه بانه صاحب أسرة ، واذا أنجبت الزوجة بنت هذه المرة فقد تنجب ذكورا مرة أخرى ، لكن عاشور برك بجوار الكانون يدفيء يديه على نيرانه .. يبتسم مستهزئا ، ويزيد من حركة يديه حول النار ، كأنه يريد ان يأخذ ما فيها من حرارة تكفيه لمدة أسبوع ، ثم يخرج من جيبه وهو يدندن كيسا صغيرا ، تآكلت أطرافه مملوء بمادة تشبه اوراق الزعتر .. فينظم التعميرة .

وأخذ يدخن ، والكيف يحترق ، ويركد في أعصابه فترتج ، وتتشنج ، ثم يذوب في دماغه فيخمر ويحلق .

وينطلق اللسان الجاف ، وتنتهي به النشوة الى وصلة من الغناء الطارىء ، يقدمها للمولودة الجديدة في حضرة الجلساء بصوتـــه الاجش ، فيقرع الآذان ، ويفزع القلوب ، ويدع الأذواق تمتعض ، والافواه تتقيء •

اشمأزت العجوز من غرابة المنظر ، وهول المصيبة ، ثم توجهت اليه قائلة :

ـ بدلا يا عاشور من هذا الذي تحرقه فيحرق عقلك ، وأعصابك ، ودراهمك ، اشتر شيئا لزوجتك ، انها لم تأكل شيئا منذ الصباح ، وهي تتلوى من شدة الالم ، وها هو الغروب •

ـ ماذا أصنع بالألم ، وهل أتحمله عنها ؟ وماذا أشتري ، وكل شيء موجود يا مباركة الشارفة(١) ؟

ـ أي شيء موجود ؟

ـ كل ما ينطق به اللسان أيتها العجوز الحمقاء •• غريب يا زمان •• آه يا زمان !

ـ تقول لي عجوزا ، وانت ماذا تقول عن نفسك •• اذهب واشتر لزوجتك شيئا من اللحم ، والسكر ، فليس هنالك موجود غير الماء ، والفراش ، والطحين ، والملـــح ، والكيف ، وقليل من الجمرات في الكانون •

---

(١) العجوز •

ـ لا تذكري الكيف بسوء ، ان له قدسية ، ان له كرامة عظيمــــة عندي تساوي الدنيا بأجمعها ٠٠ وأحب معـــه المعجونة(٢) ٠٠ والكحول ٠٠ هل سمعت ؟

ـ ورشيدة ، وما تحتاج اليه ٠

ـ ان الكيف أهم منها وما تنجب ، ومنك ، ومن الاحياء ، والأموات ، وعلى رأسهم الحاج علال ٠

ـ حتى الأموات بدأت تنبش قبورهم ولا تخاف الله ، وما ذنب الحاج علال الذي غطته حيلك حتى قمة رأسه ٠ وثق بك فخدعته وخدعتني ٠ وهبك أعز ما عنده ، وهبك الجوهرة ، ولم يطلب منك كلفة ٠٠ حتى قلادة المرجان لم توضع في رقبة رشيدة ٠

ـ أي جوهرة يا مباركة التي تعنين ٠٠ احفظي لسانك من الزلل ، وانتبهي انك أخطأت بالزاف ، وتماديت ، وبدأ الخرف يغزوك ٠٠ تذكري الماضي يا مباركة ، نعم تذكريه ، انه لم يتلاش من دماغي ٠

ـ الماضي يا عاشور ٠٠ رجعت اليه ، لم يبق غير ذلك ٠٠ اتق الله يا رجل ، وأسألك بالله ألا تذكره ، فلا تسيء للناس ولا تسيء لنفسك ، ان رشيدة الآن بين يديك ٠

ـ بالصح وماذا يهمك من أمرها ؟

ـ يهمني أن أراها تنعم بشيء من راحة البال ولو قليل ،

---

(٢) خلاصة الحشيش مع اللوز والسمن ٠

ـ أمركن بنات حواء غريب ، والخير الا أرد عليك ، فأنت عجوز خرفة ٠٠ واه ٠٠ واه يا عباد الله !

ـ ليس عندك ما ترد ، فجعبتك خاوية ، وضميرك ميت ٠

ـ قلت لك ان عندي الرد على كل شيء ، فلا تثقلي علي وتضيعي مزاجي ٠٠ علاش ما تلحقي بالحاج علال ؟ هل عندك رد ؟

ـ صحيح يا عاشور ليس عندي رد ، سألحق بعلال ، ولكن الوقت ليس بيدي ٠

ـ انتحري ، يصبح الوقت بيدك ٠

ـ استغفر الله العظيم ٠٠ والله انك لشيطان !

خرج الرجل بعد ان قلب يديه على جمر الكانون ، وقال وهو يضحك سموها مليكة ، انني احب هذا الاسم ٠٠ مليكة ٠

كانت رشيدة تغط في ألم عميق بجوار الكانون من طول فترة المخاض الذي امتص قواها ، فبقيت خائرة ، يتنازعها النعاس ، والارهاق ، والألم ، وكأنها لم تسمع شيئا ٠

اتت مباركة بقطع من الحطب ، وزادت النار ، ثم خرجت الى الحانوت ، وابتاعت بعض الضروريات ، ثم اخفتها تحت ازارها ٠

وصلت البيت بسرعة متناهية ، فأعدت الطعام للمرأة الولود التي اقتنعت بما تيسر ، فليس ضروريا ان تذوق طعم اللحم ٠٠ انها تريد بدل اللحم ان ترى طيف العجوز يظللها

لتشعر بالراحة وتنعم بصغيرتها · وتسمح احدى نساء الدرب بانجاب رشيدة لصغيرتها ، فترسل بعض الملابس للمولودة ، ثم بعض الطعام ، وتأكل رشيدة ، ثم تملأ فمها من اللحم الشهي ، وتحمد الله ·

تمر الليالي تباعا ، ويمر الوقت ، والدنيا هي نفسها ، ومباركة تزداد هرما ، وانحناء صمتت رشيدة ·· امتد خيالها الى البعيد ، وراحت تتمتم ، وعيناها ساهمتان في الافق ·· ان الاطفال لا يتحملون ، ولا يبررون ·· انهم مخلوقات بريئة ، فكيف يعيشون في ظلال وزر غيرهم ؟ على أي حال لقد حملت ، ولم تبق الا ايام ·· على الله !

تضع رشيدة مولودها الثاني بيسر ، ودون الم ، أو كوابيس، رغم عتمة الليل ·· انه ولد ، واسمه احمد ·

- ١٠ -

أزيد من خمسة اعوام تمر على مباركة منذ وفاة الحاج علال ، فتظهر علائم السنين على يديها النحيلتين ومشيتها الهينة ، وفي عكازة بطول ذراعين ونصف يتعدى أعلاها قمة رأس العجوز ، ويتراكم عليها هم رشيدة ، فيسرح بها الخيال وتستقر الحسرة في وجدانها ، وتدرك انها العزاء الوحيد لتلك المخلوقة ، ولكن الشمس بدت تغرب من عينها ·

وتصاب العجوز الواهنة بوعكة حادة ، لم يستطع جسمها الضعيف مقاومتها ، فتلحق بالحاج علال ، وتحزن رشيدة على آخر معقل لها ، وتبكي على أنيسة خلوتها بكاء حارا ·· وعاشور هو عاشور ، يشيخ ولكن عروقه ما زالت تنبض ،

وصوته ما زال جافا صلبا ، وكلماته تضاعفت حدتها كأطراف مدية حادة تلتهب تحت اشعة الشمس . وكل يوم يحلو له ان يمد لسانه من فمه الذي يشبه جوف كهف رمادي من بعيد .

لم يبق شيء في البيت سوى الطحين ، فتسأل الرجل ، فيرد عليها :

ـ منذ تزوجتك ، وانا لم أسمع الا هات ، .. ولم تقولي خذ ، ولو مرة واحدة !

ـ ماذا أعطيك .. ومن أين ؟

ـ ألم تترك لك العجوز فلوسا ؟

ـ هل تركت الايام لنا شيئا ، وانت قد نسيتنا ، ولم يبق في نفسك الا الكيف .. سامحك الله .

ـ لا تدنسي الكيف يا قبيحـــة ، ألم تعترفي بانني زوجك ؟ .. انك ما زلت تتذكرينه يا خائنة ، ويقبض على حذاء من جانبه فيضرب وجه الزوجة ، فيصيب عينها اليمنى ، ويدميها ، ويلتصق الطفلان بجسد الام التي ردت على زوجها :

ـ مالي وما لسعيد يا رجل .. انني عندك ، ولست عنده ، فلماذا تأتي بسيرته ؟ !

ـ انك تكرهينني ، وتجرينني الى الشجار كل ما أحضر الى هذه الدار ، .. وانا زوج محترم .. ومتسامح وقلبي طيب يشبه الحليب ، ولست وحدي أتناول الكيف ! ، وقلة الحاجات ليست مشكلة .. بيعي شيئا من الادوات التي في

المنزل ، واشتري بثمنها ما تحتاجينه ٠٠ فالمتاع كثير ٠٠ اصنعي لنا الشاي ، ولا تهتمي وانا موجود ٠٠٠ !

غاب سعيد عن لسانه مدة ضئيلة ، ثم يسألها عنه ، ويتهمها بان ذلك له في نفسها بقيةً ، فيحيي موات جروحها ، وتعيش لحظاتها في وجوم مطبق ، وتطرق ببصرها الى الافق المديد ، وتسأل ضميرها ٠٠ ما لهذا الرجل يحاول اذلالي ، وانا لست بجانية ؟ هل له عندي ثأر يريد ان يقتص مني ؟ الا يكفيني ما أنا فيه ؟ أليس لهذه الدنيا من خلاص ؟ لماذا ينتقم مني هذا العاثر المسخوط وقد استسلمت لما يريد ؟

بقيت الزوجـــة وحيدة تقارع الهموم كزورق معتـــل المجذاف ، يرى البر قريبا ولكنه ينوء تحت ضراوة الامواج المتلاطمة تحت اجنحة الظلام ٠ وتسمع بان سعيد الذي لم تره منذ مدة تزيد على عشرين شهرا قد انتقل الى مدينة أخرى تطل عـــلى الشاطىء ٠ هجر البلدة التي يسكنها عاشور ، ويستقر هناك مع والديه ، يتزوج ، ثم يرتقي في وظيفته ليصبح مديرا ، ويحيا ايامه التي لا تخلو من السعادة ٠

تكبر مليكة ، لتصل الى السادسة ، ثم ينمو احمد فيقترب من الثالثة ، يحتاجان الى كساء ضاف ، والى لقمة اكبر ولكن عاشور يعرض عن ذلك ، يغيب عن البيت ليال ، فتسأله الزوجة عن غيابه فيضرب صفحا عن كلامها ، ويخرج ادوات الكيف فهي عنده خير وابقى ، يدخن حتى يثمل ، فتنبعث هواجسه ، وخواطره ، وتنطلق أحاسيس النفس المدمنة من عقالها الى الكون العامر الفسيح ، واحمد ومليكة يستمعان الى هذيان الرجل المسن ، وهما الى جوار الام ملتصقان في

عشهما ، وعيونهما مصوبة نحو الشخص المقابل • تثور الزوجة على ثرثرته فتذكره بأطفاله ، فيزداد شراسة ، ويلعق لعابه ، ويمسح المتدفق منه بردائه الممزق المهترىء ، وتحمر عيناه فتزداد صبغتهما ويعاود الثرثرة ، ويهمس الطفـــل البريء ‥ انه يطلب الشاي ، فتسكته والدته قائلة :

ـ ان والدك يرفض كل شيء ‥ والد من العدم ‥ زوج بالاسم •

ـ هل تنكرين أنني زوجك أيتها الحقيرة ‥ ألم يجمعنا بيت ‥ ألم يجمعنا منام ؟

ـ يجمعنا بيت أحيانا ،، ولكن لا يجمعنا منام •

ـ انت كاذبة ، ‥ لا تفكرين الا باللذة •

ـ لا أكذب في ذلك ‥ تذهب وتجيء ، ولا غير ذلك ‥ متى جمعنا غطاء واحد منذ أزيد مـــن شهرين ‥ لا أحب اللذة ‥ وصدق أنني لا أريد ان يجمعنا منام ، واذا كنت أتمنى شيء فانني ارغب في سعادة أطفالي •

انت لست من فصيلة الرجال ، انني لا أشعر انك زوج ‥ انت …

ويحاول الرجل ان يبحث عن شيء بجانبه فلم يجد ، ثار وبدأ يصرخ ، ويغرق في السباب ، وعيناه تقدحان ، وقد طغى عليهما الاحمرار ، ويرفع صوته في غمار طغيانه :

ـ يريد ابنك الشاي ، انه لا يشبهني في شيء حتى أوفر له ما يبغي ، ‥ لست مني يا ابن الخائبة •

تبسم الأم فتنفرج شفتاها بأقصى اتساع فتذهل ، وكأنها شعرت بوقع صخر صلد على جمجمتها فيسحقها ، نفضت نفسها ، ثم قامت منتصبة القامة قائلة :

ـ ما الذي دهاك يا ابليس ؟ انه منك ، فلا تظلمني ، ولا تظلم نفسك ۰

ـ نعم انه كذلك لا يشبهني ، وحتى مليكة هي الاخرى ليست من أحشائي ۰

ـ ألا تخاف الله فيما تقول ، وكيف عرفت ذلك ايها المخدر ؟ كيف عرفت يا سيء الظن والطوية ؟ ماهر بالكلام فقط ۰

ـ عرفت منذ حملك بمليكة ، فكل زوجاتي لم ينجبن الا انت ، ولا شك انك كنت تستغلين غيابي بالليل مقابل اللذة والفلوس ۰

ـ لكنك تزوجت ثلاث نساء فلم تبق معك اية واحدة منهن الا عدة اشهر ۰۰ وتهم ان تدنو منه لتصفعه ، لكنها تريثت ، أما هو فقد انشغل بالتعميرة ۰ أعمته شكوكه ، وهواجسه عن اختلاف الالوان ، والوجوه ۰۰۰

ولم تستطع الزوجة ان تتحمل ، فتبكي وتذرف دموعها ، فتهمي على رأس مليكة ، وجسم احمد فتبللهما ثم تعاود كلامها :

ـ ان اولادي لم يكونوا اولاد جمع وحصاد ، انهم منك ولم التقطهم من الزنقة التي يتزاحم فيها المارة ، ويرد انت ، عليها الزوج وآثار الانفعال بادية على وجهه :

ـ ان اولادك هم من الزنقة(1) من الاماكن الضيقة كأمهم تماما ، لا أهل ، ولا سند .

سمعت الزوجة .. غريب ، ما هذا الذي يصل أسماعها ؟ ماذا يقول الرجل ؟ تسمرت ركبتاها قدماها في الارض وبصرها باتجاه الزوج . امتقع لون وجهها ، نفذت قواها وتراخت ، اتسع فمها فجذبت نفسها بشدة ، وردت عليه :

ـ ماذا تقول والحلوف(2) ؟

ـ انك بلا اصل ، بلا جذور .. وأنا أعي ما أقول واراهن .

ـ هل زاد الكيف في تخديرك وهذيانك ؟ ان والدي الحاج علال ، ووالدتي مباركة ، فهل جننت يا رجل ؟

ـ وزوجك عاشور ، وابنك احمد ، وابنتك مليكة .. وضحك الرجل الهرم ضحكة صارخة لاهثة ملأت اشداقه ، وتكررت بنغمة متداعية فظهرت أسنانه الصدئة المتآكلة ، وراح يسعل ، ويسعل حتى احمرت عيناه ، وتضخمت عروق

---

(1) الشارع .

(2) يا خنزير .

عنقه ، وازدادت انتفاخا وبروزا ، فصعد الدم الى وجهه ، ونزفت عيناه ، وأكب على الارض ، وأخذ يلهث ويئن ، وبعد قليل يقبض على اداة الكيف ثم يتوجه بنظره الى الزوجة وطفليهما قائلا :

– قلت لك انك ضائعة ، لا أم ، ولا أب .. اسألي عن أمك الحقيقية ، وعن ابيك الصريح فلن تجديهما .

– ولماذا أخذتني ما دمت من بنات الزنقة ؟

– نوع من الشفقة فأنا من الذين يشفقون على المساكين ، وأشعر ولو على حساب حياتي ، كما أن وجهي رقيق فاحمدي الله انني تزوجتك ، ولولاي لما وجدت من يضمك . انها الرحمة التي جمعتني بك .. انني أضحي دائما ، اليوم ، وأمس ، وحتى أموت ، ولكن لعنة الله على الموت ، لماذا سيأتيني ، ويحرمني من لذة الكيف ، على اي حال لن اموت اليوم ، ولا غد .

صمت الجميع ، وخيم الهدو، . كان الطفلان يسمعان كل شيء ، فازداد انكماشهما بجوار الام ، واستبد بهما الألم والحزن ، اما الوالدة فقد دفنتهما في صدرها ، وأحست بثقل رهيب يتمطى على جسدها حتى يكاد يفنيه فتنغرس في الارض ، وتزداد خنوعا .

أمضت الزوجة ليلتها .. هل أنا كما ذكر هذا الشيطان الخبيث ؟ هل والدي ليس الحاج علال ، وهل والدتي غير مباركة ؟ هل يعقل ذلك ؟ .. لا أدري . تضاءلت تلك الليلة الطويلة ، وهي غارقة في تساؤلاتها ، كسمكة ضلت طريقها في نهر بحيرة فوجدت نفسها بين حواف صخور القاع الحادة ، وبين بريق اسنان سمك القرش السمج . يظهر الغسق ، وينتهي الليل ، يقبل السحر وهي لم تنم ، وكأن عينيها بلا أهداب .

أفاق الطفلان ، فتعد لهما الفطور ، ويأكلان ما تيسر . نظرت مليكة الى وجه الام الذي علت صفرته ، فسألت وهي تقضم قطعة الخبز :

- هل لك يا أماه أب ، وأم غير جدي ، وجدتي مباركة ؟ ان والدي يقول انك لا تعرفين لك اما ولا أبا .

- لا ياحبيبتي ، ان والدك كان يهذي من أثر الحشيش الذي أعماه عن كل شيء .

- كيف يهذي يا أماه ؟

- يتكلم ، ولا يعرف ماذا يقول .

- وأنت تعرفين الكلام أحسن منه ، وتضيف الطفلة ، هل أراد ان يضربك البارحة ؟

- لا يا حبيبتي .. لا .

- اننا لا نحبه يا اماه ، ديمه يعوط[1] عليك ديمة .. قاسح[2] بالزاف .

وتضم الأم ابنتها ، فتطبع قبلة دافئة ، على جبينها ، وتستدير لتبحث عن احمد ، فتقبله ، وتضم الاثنين ، تبتسم والدموع تهمي من مآقيها ، ثم تنظر الى السماء .

ذهب الرجل الى مقهاه ، ولم يجد أحدا من اصدقائه ، فاستهواه السكون ، وبقي الكيف في جيوبه فترة وجيزة ذلك اليوم ، ولم يعد التعميرة بعد ، راق له الهدوء قليلا ، وسرح به الخيال الى كلمات زوجته .. منذ شهرين وأزيد ، لم يجمعنا ،منام .. آه انني أقسو عليها احيانا ، صحيح انني مقصر ، لقد بدأ الكبر يؤثر في همتي ، فلم أقدر على الاقتراب من المنام ، لا أستطيع أن أضع زندي تحت رأسها ، لم يبق مني فائدة حتى لنفسي ، ايه .. انها صادقة اكثر مني ، انها ما زالت في الرابعة والعشرين ومن حقها ان تتكلم ، أما انا فقد تعديت الستين كثيرا ، لعنة الله على الكبر . اغرورقت عيناه بالدموع وبقي منكمشا في مقعده ، وبعد ساعتين يتوافـــد الاصدقاء ، فيخرج التعميرة ، وتدركه فيعود الى هواجسه ، ويغيب اياما عن البيت .

---

(١) يصرخ بشدة .

(٢) قاسي كثيرا .

وعند زوال أحد الايام يغادر المقهى بنفس الوجه ، ضئيل الجسد ، يغطي وجهه شعر طويل بلون ابيض يميل الى الإصفرار من اثر الدخان والاتساخ ، وشفتاه تهمسان بثرثرة متواصلة . وصل البيت وهو يسعل فيثير صدى داخل الجدران الصامتة ، ثم يتكلم فترافق صوته حشرجة من رئته الخربة ، المثقبة ، فيصيح بالزوجة :

- ماذا عندك من الأكل ، ألم تصنعي لي فطورا ؟ انني جائع .

- نحن وقت الغداء ، سأصنع للجميع ونأكل معا .

- اصنعي لي شيئا ، لا يهمني غيري .

اعدت الزوجة الأكل للرجل الذي بدأ يشيخ وينحني ، ولكن صوته لم يضعف ، وعروق لسانه صلبة قوية لم تتراجع بعد .

جال عينه في الطعام فيصرخ :

أين الشاي ؟ انني أحبه ، أشتهيه مع الكيف دائما ، هل نسيتني يا قليلة الحشمة ؟

- ومن أين الشاي ؟ طلبنا منك قبل أيام فلم تحضر شيئا .

- ولماذا لم تشتر انت ، ان جيوبك لا تخلو من مخلفات الديك ، .. والديك المزورين .

ـ لا تقل المزورين ، قل المخدوعين يا منافق ، هل تبغي اليوم ان تستمر في كلامك الذي تركته قبل ايام ؟ ألم تخجل مما قلته أمام الاطفال ؟ أليس لك ضمير يردك عن الثرثرة الجارحة ؟ هل بعت الحشمة ، والوقار ؟

ـ تقولين بانني خدعتهما ، ولماذا لا تقولـين بأنهمـا خدعاك لماذا لم يقل لك الحاج الكذوب بانه ليس والدك ، وان مباركة لم تكن والدتك ؟ اذهبي ، واسألي عن أمـك الحقيقية ، فالقرية ليست بعيدة .

ـ سأذهب غدا الجمعة ان شاء الله ، واسأل عن اهلي حتى أصل الى حقيقتي ، فيرتاح تفكيري .

ـ حقيقتك ، أنا أعرفها ليست من الحلال في شيء ، انت ابنة الزنا ، من اب زان ، وام زانية ، التقيا في ظلام الليل ، انت ابنة العار ، ابنة الكذب ، والنجاسة ، ولا شيء غير ذلك .

ـ أراك تتكلم عن الفضيلة ، والزيف ، ومواطن الزلل يا عاشور ، تتحدث لنا اليوم بالحكم فمن اين لك هذه البلاغة ؟

ـ اذا قرأت سبعة اعوام عند الشيخ بلا فائدة ، وما زلت تقرأين الكتب العصرية الفاسدة فانا قرأت عند غير خمس سنوات .

وصمت ، فقد اجهد الشيطان الرجيم نفسه ، واخذ يخرج الكيف من بين لثته واسنانه التي نخرها الكيف بعفونته المترسبة ، وبعد الوجبة السريعة انسل من البيت ، وأقسم برب الكيف ان لا يعود في المساء ، ولا في اليوم التالي ، فجدران البيت تضغط على قلبه ، وعيون ساكنيه تحملق فيه كأنها متفقة على الايقاع به بطريقة ما ٠

بقيت الام وطفلاها يمضون مع الزمن ، ويرخي الليل وشاحه ، يمضي الهزيع الاول منه والظلام ما زال برما ، والام لم تنم ، وتخالجها افكار متواترة ، ٠٠ ستذهب غدا الى القرية لتسأل الشيخ عبد الستار جارهم القديم عن هويتها ٠ انها تعرف ان الشيخ لن يخفي عنها الحقيقة ، واذا انعدم الرجل فانها ستسأل غيره من جماعة القرية الثقات ٠

ازفت لحظة الفجر ، وبان طالع النهار ، وبعد ان أعدت الأم الفطور لطفليها ، شدت أحزمتها ٠٠ والى القرية ٠ أخبرت مليكة واحمد بانها ستصل الى مكان قريب ، وسترجع عند الزوال ٠ اغلقت الباب على طفليها ، وابتلعتها الدرب ٠

خرجت من المدينة وهي ساهمة النظر في تراب الطريق ، شاردة الفكر كأنها تعد الحصى ، وتواكب مسارات النمل على حواشي دربها ٠ كانت تمشي وهي مسرعة ، بلا كلل ، وبعد ساعة تتراءى لها القرية النائية بين التلال ، وتحس المرأة بشيء يقطع صدرها ، ويجتازه ، فتخور اعصابها ، ويتسرب



اليها الوهم فتموت جرأة البحث · تجلس على حافة الطريق ، ثم تعيد احداقها للقرية ·· لا لن اتراجع ، ويدب الحماس فيها ، وتشد ازارها ، وتجر قدميها فتسير حتى تقترب من بيوت القرية في غضون لحظات ، فتزداد دقات قلبها الحائر ، لقد اجتازت بيت الجار القديم ، ستدخل على دار الشيخ عبد الستار ، لتمحو الشك باليقين ·

عبرت الدار دون ان تطرق الباب ، اغمضت عينيها فتصل الى المراح ، وتجتازه · نفذت الى الحجرة الداخلية ، قلبت الفراغ بسرعة رهيبة ، لم تر الشيخ ، ولم تشاهد الا فاطمة الزوجة العجوز تصلي بعد ان فاتتها صلاة الفجر ·· ستسألها اذا ، لكن الصلاة تطول ، جلست رشيدة على الارض فـلا حاجة للفراش · تتصارع الافكار في مخيلتها ·· ولماذا تبطىء العجوز بالصلاة ، انها ركعتان ؟ ولكن السجود يتأخر ، والركوع يتوانى ·· آه لو يصح لصليت عنها ، انها لا تسرع! هل تريد ان تهزأ بي ، لماذا لا تنهي صلاتها ؟

تتم العجوز ركعتيها ، وتختم صلاتها بشيء من التسبيح على رؤوس اصابعها ·· غريب امر هذه العجوز لو أنها تؤجل ذلك الى المساء ، ولكن علي أن اسكت · تضايقت رشيدة ·· حـاولت الاقتراب ، وفي الحال تنهي العجوز تسبيحها بقراءة الفاتحة ، وتفاجئها زائرتها قبل ان تفرغ من التلاوة ·

– أين عمي الشيخ عبد الستار ؟ وترد عليها مستقبلتها مذعورة .

– انه خرج مع الأولاد الذين يحرثون الكرم ، ويصنعون العرائش ، ويجمعون الأوراق من اشجار الحناء .

– ايش تبغي منه يا ماشي أنت رشيدة .. ابنة مباركة ؟

– ربما يا عمتي .

– نوضي[1] يا ابنتي باش أضع لك الفراش وأصنع لك الشاي . تحضر العجوز زربية سمكية فتفرشها لضيفتها التي اتجهت اليها قائلة :

– بارك الله فيك يا عمتي ، وأطال عمرك .

– قولي لي يا حبيبتي أيش يكون اللي غيرك ، وانت في المدينة لا تحصدي ، ولا تعلفين البقر ، ولا تأتين بالماء من النبع .

– الدنيا يا عمتي .. الدنيا ألا تعرفينها ؟

– تبغين عمك الشيخ ، دروك يجيء ، مانستطيع ان نقوم مكانه ؟ فأنت عزيزة علينا من يوم كنت مع اهلك بجوارنا .. أيام قضيناها .. كانت زوينه .

– السؤال ماشي ضروري يا ابنتي ، انك ابنة الحاج علال ، وابنة مباركة ، ومن ينكر عليك ذلك ؟ عشت معهم بالكرم ، والحقل ، والدار ..

(١) انهضي .

ـ انه زوجي الذي يسألني كل يوم عن اصلي ؟

ـ هل قال بان والدك غير الحاج علال ؟

ـ نعم يا عمتي ، وتطفح عيناها بالدموع وتعاودها العجوز .

ـ وأيش يهمه من أمر والدك ؟ وكيف رضي بك ، وتزوجك ذلك الخائب ، الحلوف ؟ . ويأتي لحن من بعيد يردد سيرة النبي العربي .. ويدخل الشيخ فيلمح رشيدة ، ويعرفها في الحال ، تحاول أن تقف لتحيه ، فتقبض على يده اليمني فتقبلها ، ويربت على كتفيها ، ويخاطبها :

ـ لا بأس عليك يا رشيدة . يا مرحبا بك ، نحن نتشرف بك اليوم ، بعد ان نسيتينا مدة طويلة !

ـ لم أنس يا عم ، انما هي الظروف .

ـ توكلي على الله يا ابنتي ، قومي يا ابنتي خديجة واصنعي الطعام للجارة العزيزة ، جارتنا القديمة ، يا لها من فرصة عجيبة ، كيف حالك .. والدراري(١) لا بأس عليهم ؟

ـ لا بأس يا عم ، والحمد لله .. ولا حاجة للطعام .

ـ اصنعوا الاكل ، وابدأوا بالشاي ، فالدنيا مملوءة بالخير يا رشيدة ، والموسم هذا العام جيد ، ها نحن اليوم حرثنا

---

(١) الاطفال .

الكرم ، وجمعنا ورق الحناء ، الزيتون اغصانه منحنية نحو
الارض تكاد تتكسر ، فستمتلئ الجرار بالزيت ان شاء الله ٠
صنعنا بعض العرائش لأشجار العنب ٠٠ وكرمنا الآخر الذي
يستقر في الوادي حملة من الليمون جيد ٠٠ وأعطى الله الخير
يا ابنتي ٠٠ يجلس الرجل فيواصل حديثه ٠

– قولي يا رشيدة كم معك من الدراري ؟

– عندي اثنان ، ولد ، وبنت ٠

– أصلحهم الله سمعنا بأنك انجبت بنت منذ وقت
الدراري يا ابنتي اذا أتعبونا فانهم قرة عين ٠

– نعم يا عماه أصبح لي أطفال لهم أم وأب ، لهما أصل
ولكنني لا أعرف شيئا عن نسبي ٠

– ماذا تبتغين من نسبك ؟ اتركي هذا الموضوع ، أنسيت
المرحوم الحاج علال والدك ، ومباركة والدتك الفاضلة ؟

– عماه ، انني أسمع غير ما قلت ، انه يذكرني بالزنقة
والفجور ، والليل ٠٠ انني تائهة ٠٠ وتتحول عيناها الى بؤر
فاضتا بالدموع ، ويمسك الشيخ عن الكلام ، مد يده الى مسبحته
الطويلة من جيب جلبا به المعلق بالجدار ، وطفق يسبح
وبصره مطرق الى الاسفل ٠ وضع يده اليسرى على ركبته
وجذب نفسا طويلا من جوفه رفع رأسه ثم وقف عن التسبيح
فاتجه ببصره الى رشيدة ٠٠

ـ هل فعلها عاشور ؟ لماذا جاء اليوم يفتح جروحا دملها الزمان ؟ ماذا دهاه لكي يدخل في هذا الموضوع الشائك الذي يشبه أشواك السدر ، والعوسج ؟ وتبقى المرأة ساهمة ببصرها نحو الجدار ودموعها تنحدر بلا ضجيج ، فيتابع الرجل حديثه ..

ـ كيف نسي عاشور الحاج علال الذي اهداك اياه بعد أن أخذ منه عهدا ، فلا يبوح ، فيأتي اليوم يخون الأمانة ، نعم يا عزيزتي اننا في القرية عرفنا النتيجة منذ ان سمعنا بزواجك من رجل ليس من قدرك استغربنا ذلك ، لكنه استطاع ان يطمس قلب الحاج ، يقرضه المال القليل لأنه يعرف ان الحاج يتضايق من الدين فلا يطول دينه ، دخل السفيه الذي بدد املاك والده قلب الحاج .. آه سامح الله الحاج ، ورحمه .

ترك نصائحنا وتبع عاشور وانقضى الامر . سكت الشيخ فتسأله رشيدة :

ـ ولكن يا عماه لا بأس أن تذكر لي الحقيقة ، فلا مناص من ذلك ، وتخبرني ولن أتأثر ، المهم ان اعرف نفسي .

ـ اسمعي يا عزيزتي ، سأقول لك كل شيء ، ما دمت تصرين على معرفة ذلك .

في احدى السنين الخصبة في قريتنا جاء الينا بعض المهاجرين ، رجالا ونساء فروا من القحط في بلدتهم ، عملوا

في كروم القرية وأراضيها ، وفي احد الايام بعد صلاة الفجر خرجنا من المسجد ، واذا بصوت مولود صغير ينبعث من تحت شجرة الآرغان ، قبالة المسجد ٠ ذهب الحاج علال رحمه الله للشجرة ، فوجد عند جذعها طفلة ملفوفة بازار خرب ، موضوعة لمن يريدها ، فأخذها الحاج الى زوجته الوفية مباركة ٠٠ رحمها الله ، التي قبلتها علها تكون قرة عين لها ، وللحاج المرحوم الذي لم يكن له نصيب في الذرية ، ويرسلك الى احمد الفقية لتقرئي رغم معارضة معظم اهل القرية ، وتعاملك المرحومة باكثر مما تعامل الام ابنتها ، وكذلك كان يصنع الحاج ، ولا شك بانهما سيأخذان الاجر كاملا غير منقوص ، وماذا بعد يا رشيدة ؟ ! ماذا نقول عن الحاج ، وزوجته ٠٠ ألا يمكن ان تعتبريهما والديك ؟ الم يقوما بأكثر من دور بعض الوالدين ؟ لماذا تتأثرين من كلام عاشور الذي بدأ يخرف ٠٠ آه يا للحيف !

غسلت الدموع المتراكضة الوجه الطهور ، واشتدت العجوز فتشارك شيخها تهدئة الخواطر ، ويمد الشيخ يده التي تقبض على المسبحة الطويلة ناحيتها قائلا :

— عزيزتي رشيدة لا اثم عليك ، فانت نقية من الذنب ، انت بما كسبت رهينة ، لا علاقة لك بجرم غيرك ، ولا حجة عليك في ذلك ، انت رشيدة التي عرفناها ، الأنسانة التي قرأت القرآن ، ونجحت في مدرسة احمد الفقيه ، انت الزوجة

التي تقوم بدورها ، الانسانة الوحيدة التي استطاعت ان تعيش مع عاشور المزواج ، المطلاق . انت ام لطفل ، وطفلة ، وواجبك كبير مع الايام ، فاتركي الماضي ، ولا تيأسي من رحمة الله ، انت من الناس ، فانت لست من العدم ، اصبري مع الرجل حتى وان قسى عليك ، فقد عقله ، وتلفت اعصابه . اقترب من حافة القبر ، ولم يفق ، ولم يخف من شبح الرمس الذي ينتظره ، ورغم ذلك يـا ابنتي اعذريـه .. عزيزتي رشيدة ، انت كبيرة ، وظريفة ، انا اعرف ذلك منذ صغرك .

نظرت الى ما حولها ، فجمعت اطراف ازارها ، وبلعت ريقها ، بحثت عن حذائها ، الا ان الشيخ وزوجته اصرا عليهـا في البقاء لتتناول الطعـام ، ولكنها تأبى فأسرتهـا تنتظرها .

جمعت العجوز بعض الطعام ، ووضعته بقطعة قماش ثم دفعته الى رشيدة ، تدخل الشيخ فطلب لها المزيد فتضيف الزوجة ، ويضع الرجل شئيا من الدراهم في يد الزوجة لتضيفها الى الطعام .

خرجت رشيدة بالدموع كاملة . ويودعها الجميع ، وتخون الشيخ ارادته ، فتنطلـق دموعـه لتغيب في اللحية الكثة البيضاء . ويتجه الجميع مع الزائرة صغارا ، وكبارا حتى الباب الخارجي .

نسيت أن تودعهم عندما اصطدمت بشجرة الآرغان الباقية ، انها هي ·· الا أن فروعها شاخت ·· وتفاجىء الشيخ :

– عماه ، هل هي تلك الشجرة التي ·· ويبتسم الشيخ بصعوبة ·· ربما قطعت تلك الشجرة يا ابنتي ، وقلت لك اتركي الماضي ، فانت صاحبة اسرة اليوم ، والخير في احمد ، ومليكه ، وكما ذكرت قبل أنت بنفسك لا باخطاء غيرك ، الله معك يا ابنتي · واخيرا تتذكر الوداع ، فتودع حشد الشيخ ·

رجع جميع أفراد العائلة الى داخل البيت عبر المراح في تظاهرة صامتة ، لا صوت الا للنعال ترتد عن الارض ، ويخيم السكون ·

– ١٢ –

استقرت قدماها في الطريق بعد أن تسرب الالم الى عنقها من كثرة التفاتها الى شجرة الآرغان الضخمة ، وراحت تنهب الطريق فالخواطر مشتتة ، ونوازع نفسها بين مد وجزر · سامح الله والدي الذي رماني دون ان يكترث بي ، رماني ا احشاء والدتي التي جنى عليها ، فحملها شيئا ليس لها طا به ، مناها بالامل ربما ، وتركها تصارع نفسها ، ولكن لما ترضى وتتركه يخدعها ؟ ومن هي امي ؟

لا أعرف شيئا ·· اين تعيش الان ؟ اين هو والدي هل يستحق لفظ الأبوة ؟ ·· لا انه كذاب ، انه لص محترف

انه وغد لئيم ، أناني يبحث عن فرديته ، لقد زرع ، وانا حصدت ، آه لو عرفه لقتلته ، وشربت من دمه ، لو أعرفه لطعنته بخنجر حتى النصل ، فأشفي غليلي ، وانتقم لكرامتي ، وكرامة غيري ، فأشعر بالراحة وقتها ٠

لماذا لم يتزوجها اذا كانت قد أعجبته ؟ ! فأصبح ابنة الشرع ، واليقين ، ولا أعيش اليوم مع الضياع ، تائهة بلا دليل على هامش الحياة احتسي مرارة الألم والجريمة ، لا شك ان ذلك الرجل كان يعيش ضمن حدود اللذة ، يبحث عنها في الأوحال ، ومياه المستنقعات الآسنة الراكدة ، يؤذي ، ولا يلقي بالأ لما ينتج ، انه لص نجح واستطاع الهرب بعد ان لوث وجد ان تلك المخلوقة التي رأفت بي ولم تقتلني ، وضعتني في ازارها ، ربما خافت من الجريمة مرة اخرى فلم تزهق روحي ، ومن يدري هل رأتني مرة أخرى في الحياة ؟ هل احست بوجودي ؟ هل قبلتني ؟ هل كلمتني ؟ ما هي اوصافها ؟ اين امي أيتها السماء ؟ وأين ابي ؟

كيف كان اهل القرية ينظرون الي ؟ انهم كانوا يحدقون في وجهي كثيرا ، انهم يعرفون اذا ٠ وتنزلق دموعها على الطريق ٠

ابتعدت عن تلال القرية وشعابها ، فتدنو من مشارف المدينة ، وهي ما زالت تحاول الهرب من السراب لتصل الى بر الامان ٠ ما زالت تعود الى المناجاة فتتجه الى صخرة عند

طرف الطريق ، فتجلس تنظر الى السماء ٠٠ الهي رحمتك ٠٠ الهي لماذا احتوتني دون غيري ؟ فأنا لم اختر قدري ليكون ألمي اضخم ، وحتى أسير في هذا الطريق انني واثقة بأنك موجود ، ولكن الحمل ثقيل يكاد يسحقني ، لو عرفت انني مذنبة لثرت على نفسي ، وطلبت الغفران والتوبة ، ولكن كيف افر اليوم من قدري ٠٠ والى أين ؟ ٠ تذكرت الام طفليها فضمت ازارها ، وغطت وجهها ، انطلقت ، وكأن البيت يجذبها اليه بشدة ٠ وصلت فوجدت نفسها أمام الباب ، وهو مفتوح ، فتركض اليها مليكه ، وتطبع الام قبلة عنيفة على جبينها ، وأخرى على صفحة وجه الابن ، وتسأل مليكه والدتها :

– أين كنت يا أماه ؟

– عند امرأة في طرف المدينة ، هل نسيتي ؟ وترد عليها مليكة بسرعة :

– كنت في القرية يا أماه ، لا تضحكي علينا !

– من قال ذلك ؟

– قال لنا والدي عندما جاء ، وأخذ المفتاح من الجدار ، وفتح الباب ٠

– وماذا قال ؟

- قال : انك هودت(1) الى القرية باش تسألين عن اصلك ، عن جدنا وجدتنا ، وتصمت الأم ، وتعود اليها ابنتها بالسؤال .

- وهل وجديتهما يا أماه . ذهبت الأم الى جرة الماء لتشرب ، جلست لترتاح ، ثم قبضت على قطعة القماش وفتحتها ، واعطت لطفليها شيئا من الطعام ، والحلوى ، ويسألها احمد :

- صوبي(2) لنا مثل هذا انه حلو فترد عليه الأم .

- انه يكلف كثيرا يا ولدي ، انه من عند احدى النساء ، اعرفها فاعطتني ذلك . وتتدخل مليكه فتسأل الام .

- هل لها دراري مثلنا ؟ وهل راجلها بحال والدنا ؟ تشاغلت الام بتنظيم بعض الحاجات حولها .

وبينما كان الثلاثة جالسين اذ به يدخل وهو يشعر بالتيه .. تلاقت عيناه بعيني الزوجة فلم تقو مقلتاها على الاستمرار ، وقبل أن يجلس قفز لسانه :

- ما هي اخبار القرية ؟ هل عثرت على بغيتك ؟ ألم تجدي أما أو أبا أيتها الشقية ؟ هل لاقاك احد في الطريق ؟

---

(1) نزلت .

(2) اصنعي .

لا بد ان احد الرجال قابلك ، رآك وحيدة لم يكن معك عاشور ، فاستغل انوثتك ، واخذ منك ما يبغي .

قلت لك الحقيقة .. عديمة الاهل ، ضائعة فلم تصدقيني ، فاردت أن تجدي لك عذرا فسمحت لك نفسك بالذهاب الى القرية أيتها القبيحة ، قريبا سأطلقك ، فلن تبقي عندي طويلا ، وترد عليه :

– لا حاجة لنا بك ، صنعت ذلك أم لم تصنعه ، واذا كنت جادا في الامر فانني أقول لك يدي بيدك والى محكمة التوثيق حيث العدول ، سأرضى بذلك ، وأكون لك من الشاكرين .

– يبدو انك ترغبين في ذلك منذ مدة ، لا .. لن أطلقك اذا الا بعد ان تذوقي طعم الحرمان والعذاب ، لأنك زانية ، وهذا هو دواؤك .

– ان الله يعلم بحقيقتي ، يعلم انك تظلمني ، وترميني بشيء لا أرضاه ، ولا اطمئن اليه ، وهل يحلو لك الحديث في هذا المجال . ألا تخاف الله يا رجل .

اغلق الرجل شفتيه ، ومال برأسه الى البقعة الضئيلة بين قدميه ، فنظر الى نعله المهترئ ، ثم الى يديه واستأنف كلامه قائلا :

– اذا طلقتك ، ماذا يريد أحدنا من الاخر ؟

ـ أريد فقط نفقة الولد ، والبنت .

ـ فقط .. والبيت ، والمتاع لمن يكون ؟

ـ انه لي ورثته عن والدي .. عن الحاج علال .

ـ ورثتيه عن أمك وابيك الكاذبين . ان لي حقا في البيت لان علال ليس والدك ، وهو صديقي .

ـ المهم انني ورثته منهما ، وهو لاطفالي ، ولن اسمح لك بامتلاكه ، ومركز الشرطة ها هو قريب .

اسمعي ، اذا اردت ان اهبك الطلاق فعليك أن (تشتري نفسك)

ـ هل تريدني شراء طلاقي بثمن باهض يا عاشور ، ألا يكفي ان اعفيك من نفقة الأولاد .

ـ لا تذكري الأولاد ، انني اكرههم ، ولا اريدهم انهم ليسوا في الحساب ، انهم لك ، فاعفائي من النفقة لا يكفي ، قلت لك لا يكفي .

ـ أليس عندك جزء من شفقة ، أو قليل من حنان ؟

ـ انهم لم يأتوا من صلبي ، قلت لك مرارا ، انهم لا يشبهونني ، انهم من غيري ، المهم فكري بشراء نفسك ، فالطلاق ثمنه متوفر عندك ، وغير كثير ، لا بد من البيت البيت وصافي(٣) .

ـ واين نسكن أين أحمي الأطفال شر البرد وقت الشتاء ؟

ـ ماشي شغلي ·· لا تحاولي معي ، أنا لا ارجع بكلمتي ، ولا أحب الرجوع فيما قلت ، ما عليك الا ان تختاري ، اما البقاء على هذه الطريقة من العيش أو الطلاق ، لن اكذب عليك ·· أسألك بالله ان توافقي على ما يناسب مصلحتك ، وحريتك ، لن اجبرك على اي من الاثنين ، اما البقاء عندي فتتحملين جزءا من مصاريف العيش فتخدمين ، أو الطلاق فتشترين نفسك ، وتتنازلين عن حقك في البيت ، وتكونين حرة سعيدة · تكلم الرجل فاثار السعال حتى كأن رأيته رغبتا في الخروج من صدره ·· اورثه مزاجه السل الذي نخر جسده ·

ابتعد اليوم ولم يبتا في الموضوع ، فالرجل أصر على موقفه ، واعمته الرعونة عن اسرته · لم تقدر الزوجة ان تختار ، فقد احتوتها الحيرة ، وستؤجل المسألة الى سويعات الغد ·

ذهب عاشور الى الخدمة في طرف المدينة ، يلبس جلبابين مهترئين ، وينتهي في مرقده ، يحرس بجدارة ، ويخلص اذ أراد بعين متيقظة ، كأنه خلق ليكون عساسا · انتظر السويعات وكأنه يتقلب على لهب الجمر المتواني · كانت الليلة نيرة فالقمر يشمل بغلالات ضوئه الهادىء آفاق المكان ، فتنبعث كوامن المخلوقات وتبتهج تحت موجات الاشعة الوادعة

حتى الجنادب يعلو صريرها في هدأة الليل من اركان الحديقة المجاورة ، ويمكث عاشور لحظاته تحت سحائب الشعاع الذي ارتد عن وجهه فبقي سجين أفكاره العمياء ٠ انه مغرم بالبيت ولا شيء غير ذلك ٠

وبعد أن تفتقت أستار الفجر ، وتسربت اشعة الشمس من شقوق الباب لتصل الى عيني الام فتمتص بقية الظلام منهما ٠ تفيق ، وتبقى في منامها ، ويعادوها التفكير لتنتهي الى اختيار ، فهل ستوافق ٠٠ اين سنسكن ؟ ومن أين نعيش ؟ ٠٠ انه لا يعطيني شيئا من ماهيته الشهرية ، ولم يكن الا عبئا ثقيلا على كاهلي ، انني اخدم عند بعض البيوت ، وأصرف على طفلي : فما الفائدة من البقاء عنده ؟ وليت لسانه يهدأ وليته لم يكره ولدي ، سأهرب بهما ٠

يبدو الصباح واضحا ٠٠ ويخترق الباب مبكرا ، وعيناه قد أثر عليهما السهر ، ودفنهما الورم ، فاجأ الزوجة قبل أن يجلس :

ـ هل اخترت شيئا ؟ ام ما زال ؟

ـ اخترت ما يناسبك يا عاشور ، الطلاق طبعا ولك البيت ٠

ـ قلت لك بأنني لن اجبرك ، حتى لا اكون مسؤولا امام الله ٠

- أوافق على الطلاق واشتري نفسي بالبيت .. لا تتكلم عن المسؤولية أمام الله أراحك الله منها .

.. وعلت وجهه الشاحب ابتسامة ، انطلقت من أركان جوفه المظلم ، واهتز قلبه جنونا للذة الانتصار ، صمت ونظره محدق الى السقف ، والنوافذ ، تدور هواجسه .. كم يساوي البيت يا ترى ؟ سأبيعه ، وأقبض ثمنه ، وستمتلىء جيوبي ، وسيعود الشاب لي ويا ليتنني أجد من يشتري الآن ، نعم الآن ، انني لا املك شيئا فجيوبي خاوية منذ أسبوع ، وتنفجر شفتاه بضحكة مدمدمة تراخت بعد برهة قليلا ، قيلا .

انتهت الام من تجميع متاعها ومتاع طفليها ، وتبقي الأشياء التي لا تقوى على حملها ، أهملت أوراق الكتب القليلة التي احبتها .. يستحثها الزوج على الاسراع ، فخير البرعاجله ، ليحدث كل شيء اليوم . الموعد عند محكمة التوثيق فهناك العدول ، وهناك سيتم الطلاق ، فأنا أنتظرك هناك .. وينطلق .. كانت ساقاه اسرع من الظل .

وصل الجميع الى باب المحكمة ، وانتهت من عمر الزمن ايام الزواج المقدس عند المساء ، ويتسامح عاشور مع هذه المرأة ، لتبقى في بيته تلك الليلة .

تنازلت عن البيت في المحكمة طائعة ، ولن تبقى عنده سوى لحظات فرياح الشرقي المغبرة اللافحة أخذت تتراجع لترتد الى جوف الصحراء .

وما ان اقبل الصباح حتى دلف عاشور يهرول ، ستخرج رشيدة بطفليها ، ستبحث عن قرية أوضيعة أو مدينة ، وستبتعد عن الرجل ، وعن اصحاب الفضول ، وعن العيون التي راحت تلاحقها ، وتستفسر عن حقيقتها بعد أن نشر في الحي بأنها بلا خلفية شرعية ، حتى جارتها التي كانت تتوسم فيها النبل ، والفضل ، بدأت تشيح بوجهها عنها ٠

وضعت المتاع بازار بال على رأسها ، وتريد أن تودع ، ولكنه بقي جامدا لا يرغب في الكلام ٠

اخذ الجميع ينظرون اليه ، ولكنه كان يحدق في المفتاح ، ويرمقه بشراهة ٠

شعرت بمرارة اليأس فرجعت لطفليها ، وما أن خرجت بمليكة ، وأحمد حتى اندفع الرجل وبيده المفتاح ، يغلق الباب ، ويخرج مسرعا نحو الشارع الرئيسي ، يتخلص من الزنقة ، والمفتاح مشدود الى باطن كفه ينظر اليه حتى يكاد يلتهمه ويستمر في هرولته ، ويأخذه السعال ، ويشتد عليه فيهتز الرجل ثم يقع على وجهه ، ويتحامل على نفسه ٠ يجلس ليسكت اعصابه فتقفز دموعه من عينيه من اثر ازدحام الحشرجة في صدره ٠ ينهض ويستأنف الطريق ، وفي الشارع الذي يتسكع فيه وجد الرجل الذي كان ينتظره لشراء البيت ويتفق الاثنان ٠

سارت الأم مع رفيقيها ، ولكن لا تدري الى أين ؟ ويسألها الطفلان ، وتجيب :

ـ سنذهب الى مدينة اخرى ، فقد سئمنا الحياة في هذه المدينة ، وتخاطب الطفلة امها قائلة ..

ـ لنرجع يا أماه الى بيتنا الذي نعيش فيه ، نلعب فيه مع أولاد الجيران ، لن نجد بيتا بحالة .

ـ ان البيت الآن لوالدك ، وليس لنا يا بنيتي .

ـ ما كاين بأس ، نبقى في البيت وعندما يأتي ندوز(١) عند الجيران ونتركه يغوط .

ـ انه يتكلم علينا كل يوم .

ـ أسكتي ، ولا تردي عليه وهو يغبر(٢) عنا ديمه .

ـ لا يا حبيبتي نبغي مكانا آخر افضل .

وصلت الشمس الى منطقة الزوال فاشتدت الحرارة والأم ما زالت تحث خطاها . تحررت من المدينة ، وابتعدت ،

ثم تغيب في الطريق . يشتد التعب على الطفلين ، انها لا تستطيع حملهما فظهرها يعلوه المتاع .

اقتربت الام من نبع صغير فاستقرت بطفليها تحت شجرة سدر ضامـرة مهشمة الجذور ، لتستيعد معهما جزء مـن

---

(١) نذهب .

(٢) يغيب .

الراحة ، وعند طرف ساقية ضيقة كستها الاعشاب اخرجت لهما بعض الطعام ، وما أن امتلأت البطون حتى أقبل النعاس فغط الطفلان بنوم النهار . وارتاحت بجوارهما ملتحفة بازارها حتى مالت الشمس عن افقها نحو الغروب ، أفاق الصغيران .. فتنطلق القافلة من جديد . أحست الام بالتعب يدب في جسدها ، وضعت أحمد على ظهرها ، والمتاع على هامتها ، واخذت تمشي ، رويدا ، رويدا حتى اقتربت من مشارف قرية صغيرة كلها مزارع زيتون ، تتخللها هنا وهناك شجيرات البرتقال والليمون ، ثمارها متدلية ناضجة . ابتهل وجه الام وتنفست الصعداء ، وتخاطب نفسها .. هنا سنمكث ان شاء الله .

وجدت الام في تجوالها باطراف القرية جزءا من بناء مهجور ، يعجب عابر السبيل لأن يعشش فيه لحظات ولا يتخذه دار اقامة . وضعت فيه الامتعة ، والحوائج ، وقارورة الماء ، والطفلين . الشهر ما زال مقمرا ، والسماء صافية ، فالليل ضاح ، وكل شيء هادئ في سكون الليل ، الا اصوات الكلاب ، والحمير .. لا غبار على المكان ، فهو صالح لقضاء فترة راحة ، واستجمام للاسرة التائهة ، المتعبة في ليا لي الدفء .

نام الطفلان بعد تناول قليل من الأكل ثم يسرق النعاس أجفان الأم ، فيغرق الجميع بنوم حالم انها ليلة من النوم المتواصل بلا حراك بعد سفر اليوم الطويل .



بدت اشراقة الفجر ، وأطلت الشمس والأم لم تفق ، وبعد سويعة تستيقظ ، ويفيق طفلاها فتجمع بعض الأكل الذي ما زال باقيا في ثنايا متاعها • وبعد ذلك تحمل متاعها ، وتابعيها فتتجول بين أبنية القرية •

تطوف بالقرية فلا تعثر على بغيتها ، ولكنها تيقنت بأنها تستطيع أن تكسب ثمن الحياة فهنالك موسم جد الزيتون على الابواب •

مضت ساعة النهار ، وقد تعرفت على دروب القرية ، وزنقاتها ، ولكنها كانت تتابع خطوها وكأنها تبحث عن شيء في عالم غامض وطفلاها ينظران الى جدران البيوت ، والحوانيت ، والى الناس ، وكل ما تقع عليه عيونهم في دنيا المخلوقات ، ويقابلهم الناس بنظرات فيها بعض من الغرابة ، والعطف •

امعنت الشمس في الغروب فلا بد من الرجوع الى الحجرة المهجورة • انها مكان أمين ، ومغر لهم ، ولا بد من الاسراع فأشرعة الظلام بدأت تتلاحق ، دقائق فتصل الأم الى أركان حجرتها التي لا باب لها ، ولا نوافد ، تنطلق منها رائحة العفن ، والرطوبة ، والقمامة بغزارة •

اصبح المكان تلك الليلة محرما على الكلاب ان ترتاده أو تجوب أطرافه ولا تحتك بحوائطه الحمير ، أو تتخاطب فيه الصراصير • نظفت المكان ، ومهدت التراب ، وأزالت الحجارة ،

والحصى ، والاشواك من زاوية متينة قليلة الشقوق ، والثقوب ، ثم صنعت لولديها مكانا جيدا حصرته بيتها وبين زاوية .

وبعد تناول قليل من الخبز على ضوء القمر المتسلل من جحور الجدران ، وكواتها ، وبعد قليل من السمر الهامس في زوايا العتمة ينام احمد ، وتلحقه مليكه ، وتبقى الام تتحدث مع الوحدة ، وتتسرب الى مقلتيها اغفاءه فتعانق روحها عالم الرؤى ، وتتراخى الجفون بعد هزيع من الليل ، ويجري الظلام ليأتي الصباح بهمة جديدة متوثبة .

يمر القرويون وهم يتحدثون عن الجرار ، وتجفيف العنب وزيت الآرغان ، وعن الروث واضافته الى المغارس ، وعن ترميم السواقي ، وارتفاع اثمان البقر ، والخراف في المدينة المجاورة ، فتستيقظ على هذا اللغط ، ووقع حوافر البغال ، والحمير .

انقضى جزء من النهار ، وهي تبحث ، وتطيل ، وتسأل حتى المساء ، ثم تجد ضالتها . وجدت العمل عند احد الفلاحين ، وبينما هي تتجول في ازقة القرية في أعقاب النهار اذا بها تبصر وجوها أفاقت من داخلها . شاهدت ثلاثة رجال يرمقونها ، وهم يتهامسون .. غريب ذلك ، لماذا يتحدثون ، ويصوبون انظارهم وتذكرت ، انهم من سكان قريتها القديمة ، عرفوها ، ولكنهم لم يتكلموا معها . ظلت نظراتهم تطاردها

حتى أحست ان ابصارهم نفذت الى جوهرها فانطلقت ظنونها التي خمدت .. لماذا تلاحقني العيون ؟ ما الذي يريده مني هؤلاء اذا كانوا يعرفون كل شيء ؟ لماذا لا يتركونني وشأني .. هل جرحت غيري ؟ هل اقترفت ذنبا حتى أجازى ؟ لماذا يترك هؤلاء عيوبهم فيسقطونها على نفسي ؟ كيف يستمرىء الناس الحديث في اعقاب الاخرين وهم يعششون في دنيا النقص والغش والنفاق ؟ ولم يشبعوا من الخطايا رغم امتلائهم ؟ ماذا سيربحون يوم نهايتهم ، يوم الوحدة ، والجزاء ؟

وتطوف هواجسها ، وتنبعث من زوايا ضميرها ، وتخيم على فكرها سحابة داكنة ، متراكمة ، ليس لها نهاية ، سأترك هذه القرية ، وأهاجر ، انها ليست لي .

قربت ساعة الغروب ، فتسال نفسها .. هل اركب الحافلة فأقي الطفلين مرارة التعب ، ومتاهات الليل ، فنصل الى أقرب بلدة أو قرية فنخيم ، ولكن دراهمي قليلة . وتسأل عن الاجرة ، انها خمسة دراهم .. مبلغ ضخم جدا أستطيع ان اشتري به كومة ارغفة ، تكفيني وطفلي اربعة أيام طوال لا لن اقدم على ذلك ، الطريق موجود ، وما علينا الا أن نسير ونشد متاعنا ، ونملأ قارورة الماء .

وتستقر الأقدام على ناصية الطريق في غياهب المساء ، وبعد ساعة من بداية الرحلة يشعر الولد بالتعب ، فتجلس الأم وتضعه على ظهرها ، وتحكم رباطه ، وتضع المتاع على رأسها وتمشي ، وتمشي .

وما زالت بقايا الريفيين تجوب الطريق ، هذا ينقل التبن على دابته ، وذاك يملأ شليفه(١) بالروث وآخر مع قطيع ابقاره ، كل باتجاه القرية ٠

رأت زوجا من الحمير ، ويقفز الى ذهنها شيء ٠٠ سأضع المتاع ، وأحمد على أحدهما فأريح ظهري ولو سويعة ، وليقل عني من يراني بأنني غجرية خاسرة ٠ سأحاول ، فتدنو من الحمارين ٠ هرب البعيد بعنفوان وبقي الآخر ٠٠ انها حمارة شهباء ، عجفاء ، لا شيء غير الجلد ، والعظم ، غطتها نتف من الشعر هنا ، وهناك ، فتطرد الام الفكرة من دماغها ٠

اتجهت الى واد صغير فيه ضيعة يانعة ، جلست قليلا تحت اغصان شجرة مطاط ٠٠ فغطاها الظل ، وشربت الماء البارد ، وافرغت ما في القارورة من ماء ادركته سخونة القيظ ، ثم ملأتها ٠٠ الضيعة صغيرة ، وساكنوها قلة ، وليست مناسبة ٠٠ سنغادرها ٠

تسير ، وتتراكض خلفها الظلال ، فتشتد في سيرها كجندي روماني قديم مدجج تأخر عن الكتيبة ٠ غربت الشمس فلا مزاح ، ما زال شعاع الشفق حيا يهدي القافلة التي اطمأنت الى ايناسه ولكنه لن يطول ٠ تدركها زحوف الليل ، ويلف الظلام الدامس جميع الكائنات ٠

---

(١) وعاء ريفي لنقل المنتوجات على ظهور الحيوانات ٠

ازداد التصاق مليكه بجسم الأم ، كأنها تبغي أن تدفن نفسها في تلافيف ازار والدتها · ينام الطفل على ظهر الام ، وتمشي مليكة بلا أنفاس ·

ويدخل الثلاثة في فج سحيق ، تعلوه تخوم الرواسي ، وتملأه الأشجار والجداول ، وتندفع أصوات متضاربة من القيعان ، حفيف الأوراق ، وذوائب الاشجار ، صرير الجنادب المتقطع ، وخرير السواقي ، ويختلط ذلك بوقع الأقدام العارية التي تخطئي جوف الطريق فيردها الشوك ، والهشيم ، وتختلف عليها الاصوات تنبعث أصوات من طيور الليل من الشقوق ، والثقوب · فتعلو الاصوات ، ويرتفع الصدى بين أطراف الوادي والتخوم ، وتنكمش الام ·· انها ترى كل شجرة شبحا ماردا ، وكل صخرة يكمن وراءها مخلوق غريب · ترى كتلة سوداء أمامها على بعد ويبتلعها الظلام ·

تقترب أضواء الحافلات ، فتنعكس الأشعة مرتعشة مع الندى على حواف الأوراق فتهرب الأوهام ، والشكوك · ترى المرأة الظلال صخورا ، والاشباح اشجارا ، والكتلة المظلمة كهفا متثائبا ، فتهدأ النفس ، وتقبض مليكة على ساق الأم ، انها لا تقوى على المشي ، كيف ستصنع الانسانة المتدثرة ؟ فالتعب أدرك حتى حوضها المنيع ، ستحمل جميع عناصر رحلتها على كاهلها المتين ، وتستأنف سيرها بخطى وئيده ·

ظهرت اضواء المدينة وتتابعت أمواجها من بعيد ، ويطل القمر من آخر الليل ، فتنطلق الابتسامة المشرقة من الشفتين

الذا بلثين ، وتتسع عيناها الناعستين فيزول منهما القذى ، وتلتقط أنفاسها ، انها تتحدى رحلة أخرى حتى الى أودية الجحيم ٠

وقبل ان ينتعش الفجر تصل الى مشارف المدينة فتبصر أول بيت ، ولكنها لن تهـدأ الا اذا اقتربت مـن البيوت المحتشدة ٠

وتضج مليكة من مركبها المهتز ، انها تريد من الام ان تجلس عند منحنى الطريق لتنام ، وتخترق الرحلة اول درب في المدينة ، وتنتهي عند جدار احد المساجد فتضع رشيدة حملها هناك ، وينتظم الثلاثة بكومة متداخلة لا حركة فيها ٠

انبثق ضوء الفجر ، وانطلق صوت المؤذن بتكبيرتيه ولكن الكومة بقيت صامتة ٠ أقبلت الشمس ، وصعدت في ضحاها ، فيمتص الازار الغامق المثقب حرارة اوائل النهار التي تغلغلت في النفوس كأنها تريد سبر الاغوار ٠

- ١٤ -

قام الطفلان والام ما زالت ، يبصران العالم الجديد ، والناس يمرون من جوانبهم ، ويرمقونهم ، يسألون الام عن الطعام فالبطون خاوية ، ويلحان في الطلب ، فتنهض ، وتفاجأ بالماره ، فتقوم مذعورة تأخذ متاعها ٠ وتنتقل الى زاوية اخرى من المسجد بعيدة عن انظار الناس ، وتبحث عن بقايا الطعام فتعثر على نتف من الخبز ، وتقدمها لمن يريد قضمها ،

وتتريث حتى يأتي دورها للفتات المتبقي • طلب الابن الشاي ولكن طلبه عسير فتقنعه بانه سيشرب مع الزمن ، فلماذا العجلة ؟ الدراهم قليلة والمستقبل غامض •

تتساءل ماذا تعمل في يومها ؟ •• هل سأمكث عند باب المسجد لأطلب المساعدة ، فأتوسل باسم (سيدي[1] ربي) ؟ أم أتوسل على الأبواب ؟ ان ساعدي قوي ، أرى العمل متوفرا في كل مكان الزيتون موجود ، والمحاصيل متوفرة ومواسم الجني متتابعة ، البلد كله خير ، لا يجوع خلاله انسان الا من عجز عن الحياة • وتبقى على هذا الحال ثلاثة ايام ، ترود احياء المدينة ، ودروبها ، وتتضور البطون جوعا ، ويستبد الجوع بالأم •

تعرفت على احدى النساء ، فتسعى لها بالخدمة عند زوجها صاحب ضيعة زيتون ، وتقوم رشيدة بالخدمة مع غيرها من النساء ، والرجال ، تعمل النهار ، وتنام الليل عند مكانها المعتاد طرف المسجد ، وتغزو الدراهم جيوبها ، ويصمت ضجيج البطون ، وينحسر الماضي ، فلا بد من تبديل مكان النوم ، وراحت تبحث عن مكان لتخيم فيه ، ولا يزيد عن غرفة واحدة ، وبعد استفسار مضن تجد بغيتها حسب المواصفات المدروسة في ذهنها •• حجرة واحدة بباب خشبي مائل ، ونوافذ مرصعة بألواح خضراء وزرقاء باهتة ، واخرى

(١) من ألفاظ المتسولين •

بلا الوان متصالبة عارية ، ولا عيب في جدرانها سوى جحور تعد على رؤوس الاصابع ، وثقوب متباعدة يمكن إسكاتها بقطع ورق أو خرق · المراح محدود وضيق ، بلا سقف ، محصور بسور صغير من الحجارة العارية ، انه مكان ملائم ، واجرته عشرون درهما ·

تنظم الام حجرتها يوما بعد يوم ، الضوء ما زال معدوما ، ويزودها صاحب الحجرة بمصباح كهربائي مقابل خمسة دراهم لكل شهر ، اما الماء فهو من الحاسي ·· من البئر القريبة ، فتبتسم الوجوه ، وتتواتر خدمة الام حسب حاجة صاحب الضيعة ، تنتقل معه بشاحنته ، وتأتي مع غيرها من العمال في الشاحنة نفسها وقت الغروب ·

يكفيها أجرها اليومي مؤونة الاولاد ، تضيف لذلك ما تحتاجه حجرتها · ويحتسون الشاي ، ويتذكر الجميع طعمه ولذته ، وتلمح الأم اشراقة الوجوه ، فتسعد بطفليها · لقد أصبح للعائلة بعد انتهاء موسم الزيتون رصيدها من المال ، إنها تتدخر تسعين درهما · تفكر ربة الاسرة بما عليها ان تصنع ، ان مليكة ابنة الثامنة لا تقرأ ، وهناك اتساع في الرزق يلوح في الافق ·

تتوالى الاشهر ، ويتثاءب الخريف ، وتحتضر ايامه المرتعشة وتقدم رائحة الشتاء فتغزو التخوم ، وتتسرب برودته وتنفذ الى الاكواخ ، وتتسلل عبر الشقوق فتحاول

ربة البيت منع تغلغل الصقيع وتدفقه من خلال الثغرات ثم اكمال الفراش فتشتري قطعا من الحصير المستخدم ، وتزيد ٠

انقضى موسم جد الزيتون فتبديل نظام الخدمة ضروري، وقبل ان تلجأ الأم الى الخدمة عند احدى النساء ذهبت للغابة القريبة من حافة المدينة ٠ عبرت الأراضي البور ، واجتازت طرف الغابة ، تبحث عن جذور الاشجار الجافة ، والاغصان اليابسة من شجر الطلح ، والعرعر ، والآرغان الصلب المتوفر في البلاد ٠ وتصل الى جوف الغابة ، انها لن تخترق الأدغال ، تجمع الاغصان الجافة فتصنع لها حزمة تضعها على رأسها لطفليها ، ثم الى أسواق المدينة ، فتبيع ما حصلت بثمن معقول، وتبقي قليلا من الجذور مؤونة للكانون ، وبعد الزوال قد تطلبها واحدة من نساء الدرب الذي تسكن فيه لتساعدها في عمل بيتي مقابل قليل من الريالات أو صرة من الطعام تعود بها لطفليها فتعمر لهم مجمر النار ، فتعبق رائحة شجر العرعر فتملأ بدخانها اجواء الحجرة ٠

تزداد وطأة الشتاء والأم غارقة في عملها ، الا انها لا تقوى على الخروج في بعض الايام المطيرة التي تشتد رياحها ، فتهز الباب ، والنوافذ ، وتندس من خلال النوافذ المرقعة فيسمع لها صفير ، تغطي الأم ولديها بما عندها ، وتكتفي بالازار فتحس بلسعة البرودة ، وطعم زمهرير الشمال ٠ لا صوت الا لأنغام المزاريب التي تعيد قصة الشتاء ، وهمس

القطرات على أهداب النوافذ ، فتتخيل الوالدة حجرتها بلا جدران ، وان سقفها من خيوط غربال ، ولكنها مطمئنة ، هانئة، وقبل ان تنام تدفع المزلاج من الداخل ، وتضع حجرا صلدا خلف الباب الخشبي ، فيصبح الباب صلبا عاتيا على الريح ، وعلى من تسول لـــه نفسه ان يخترق الابواب في ظلمات الليل دون اذن أصحابها • تتجه ربــة ا لاسرة الى مخدعها قانعة ، فالاطفال يدفأون بالغطاء المتراكم ، وحرارة الكانون المنبعثة من جمر العرعر والآرغان تطارد البرودة المتسللة ، وتخلد الام الى لذة السكون ، وعندما يودع غسق الفجر ، وتشرق الشمس ، فان خيوط النور ، وأمواج الاشعة تعبر الحجرة ، وتتوغل فيها من خلال زوايا الباب ، وشقوقه بأشكال هندسية ، متداخلة فتشرق الحجرة ، ويعلن النهار فيها عن نفسه ، فيبدأ احمد ومليكة يتهامسان ، فتسكتهما الأم ، ثم يتجادلان فتعود لزجرهما •

تنهض الأم فتعد الفطور ، ويأكل الجميع ، ثـم تغادر مليكة الى المدرسة ، ويبقى أحمد رفيقا للام • تسير أيا[م] الشتاء متكاسلة ، فيغيب فصل البرودة بزمهريره اللاذع فتتقلص حقول الثلج المترامية على التخوم ، والقمم • ويسع[د] الناس بأيام الربيع المخضرة التي تشمل البلد من الجنو[ب] حتى منطقة المضيق في الشمال ، فتنعكس ابتسامة الحياة ع[لى] الوجوه ، وتعشب السفوح ، والوهاد ، وتكبر البراعـم وتورق الاغصان وتزهر بعد اغفاءة الشتاء الطويلة •••

ولم تعد حزم الحطب تباع بثمن مقبول ، فالدفء جاء وقلت المؤونة ، ولم تستطع صاحبـــة الاسرة استبدال الأسمال البالية ، فتخيم أردية الاحزان من جديد على القلب الذي واكبته السنون ، وراح الوجه الاسيل ينكمش ، وتهمس مليكه باذن الام : ـ أماه ، لقد رأيت والدي في الحلم ، يأتي وهو غاضب ، فهل سيأتي الينا ويأخذنا ، فنبقى معه ؟ ارتاع قلب الام من هذا الحلم الطارىء الرهيب ، وتناولت الظنون خيال الام تنهشه ، وتبعثه من مرقده ٠٠ ما للحياة ترق وتجفو ، ألا يكفي ما عشته بلا ام أو نصير ، وما أخذته من الأيام ؟ اما ان لعاشور ان يكف ، وعيون الناس التي تلاحقني ان تسبل اجفانها لتغفو ؟ هل سيصل الى هذه المدينة ؟ هل سأرى اولئك الذين رأيتهم بالامس في القرية فارحل ، فتصبح حياتي فصولا من مسرحية التشرد والرحيل ، ٠٠ الهـــي رحماك ، انني لم أشترك في الحرام وان كنت نتيجة له ٠٠ ومهما سيحدث لن ارحل ، حتى ولو جاء في هذا الحي أو الدرب ٠

ان لي انسانيتي ، فسأردع كل من تسول له نفسه ان يتحدى بشريتي ، سأبصق في وجهه ، والطمـــه ، سأكسر جمجمته ، وأغرس أنيابي في جسده ٠ ثقتي بالله كبيرة ٠

وتعمل ربة الحجرة في ايامها ، فتغطي مصاريف الحياة وتتحسن الحال ، وتجد بعض اهل الفضل ، وتجرب حظها كل يوم ٠

خرجت مبكرة ، فاليوم هو الاحد عطلة الاسبوع · لقد اشتم احمد بالامس رائحة الشواء · ستعمل هذا اليـــوم بطوله لتحصل على أجر أكثر ، قرعت الباب ، فوقفت على عتبته · الرجل في سن الكهولة ، يلبس الفوقية ، متورم الأجفان ، يدل منظره على انه نسي نفسه وقت الفطور بين اجزاء المائدة ، فاصابته التخمة ، لم تستطع ان تتراجع ، فتسأل اذا كانت عائلته بحاجة الى خدمة · لمح الرجل الجمال المستور الذي ما زال بريقه يوحي بأيامه الفائتة ، نظر الى العينين الناعستين ، ويفتح لها الباب ، ويدعوها الى الدخول هامسا فعائلته بحاجة اليها ، وينتحي بها في غرفة منزوية ، مسدلة ستائرها ، بعيدا عن انظار الزوجة ، والاولاد في الداخل · فتقف وجلة متشككة ، ويتضاعف وجيف قلبها · يحملق فيها الرجل بنظرات جشعة ، وقد احست ان بصره ينفذ اليها من الاحشاء الى الدماغ · انه رجل على شاكلة عاشور ويزيد ·· صوته جاف كتشقق قطع الخشب الجاف ، انفاسه ملوثة ، مخمورة ، واعصابه متحفزة لعمل ما · ارتابت من وعورة اخلاق الرجل ، فلماذا ابعدها عن العائلة التي هي بحاجة الى الخدمة ؟ رأته ينوي أن يلتهمها ، ولا يرغب ان يترك لها بقية · تحاول ان تخرج ، فيقبض على يدها الناعمة بيديه الجامدتين انه يريدها لقمة سائغة بعد وجبة الفطور الدسمة فيمتص رحيقها ، وليذهب بعد ذلك عالم الزوجة ، والأولاد ، والفضيلة الى الجحيم · ويمتلكها الارتعاش ، ويمتقع

وجهها .. انها بلا زوج ، انها نتيجة جريمة فكيف تتكرر المأساة .. ولكنه لا ينوي ان يقنع او يتصبر . يشير اليها بالنقود ، فترد عليه :

ـ ابقها لك ، لعائلتك .. انها لا تغريني . لقد نفذ صبر الرجل ، فيجيبها بصوت مخنوق مدمدم :

ـ سأتزوجك فيما بعد .. لوجه الله تعالى .

ـ لا أيها الماكر ، الكذوب .. اتركني لأطفالي .

ـ لن آخذ منك شيئا ، وستبقين لأطفالك ، ولن اسلب عينيك الحلوتين .. لن أسرق جمالك يا عنيدة .. لن تخسري شيئا .

ـ ابتعد عني انني في بيتك ايها الخائب . ولكن الرجل الكهل يرفض . تحاول ان تقاوم ولكنها لم تستطع ، دفعها الى الزاوية فتندفع في معركة غير متكافئة . تصرخ في وجهه بأقصى قوة تمتلكها ، فيرتعد خصمها . تسمع العائلة من الداخل ، ثم تتحرك الأقدام . أفلت يدها ، شعر الرجل البدين بمذلة الهزيمة ، وتبعها حتى الباب الخارجي وهو يتمتم .. اذهبي لا ردك الله ، هل هنالك امرأة تكره الدراهم؟ يرفع صوته ، .. هل تكرهين الخدمة عندنا يا خائبة ؟

خرجت وهي تجر اطراف ازارها ، اندفعت من الباب هاربة تلتمس النجاة ، فتسرع مذعورة لا تحاول ان تلتفت ، لاذت بطريق آخر ، وكأنها قد أحست بلذع سياط تلهب ظهرها فتثقبه لتصل الى صميم قلبها . لا تريد أن تلتفت ،

فما زالت تشعر بقوة تشددها ، وتقذفها الى الوراء • راحت تقلب الازقة فتتقاذفها الزنقات والدروب ، فتهتدي الى أحد المنافذ من بين المارة ، فتيمم حجرتها العتيدة ، وتحمد الله على الخلاص من ساعة النحس ، وتحرم على نفسها الولوج في ذلك الدرب مرة اخرى ، فهنالك عائلات اخرى تعرفها وستطرق ابوابها •

انها لن تخدم هذا اليوم ، فجسدها يعيش في ارتخاء ، واعصابها ترتج • اما وجبة اللحم التي وعدتها الطفلين فان الزمن كفيل بها •

وصلت منزلها ، وتصنعت الثبات امام الولدين ، افترشت قطعة حصير في المراح امام الغرفة تحت اشعة الضحى • يسألها أحمد عن وعدها ولكنها تؤجل طلبه الى الغد ، أو بعده ، فقد نسيت •

هجع الليل ، •• تخيلت ذلك الشبح الذي لاقته في يومها من جديد ، فأصبح زائر ليلها • أعادت قصتها معه ، فتذكرت يوم خلقها ، وقدومها الى اديم البسيطة •

تذكرت ، واستوعبها التفكير •• ان هذا الرجل الغريب لا بد وان يكون من طراز الوحش الذي سطا على أمي ، ومناها بالزواج قبل ان يقضي وطره منها ، وبعد ان أخذ ما يريد لفظها • صمتت وقد سدت منافذ الدنيا على دماغها ، فلم يستطع الكون الرحب ان يغلق جفنيها •



-١٥-

تذهب الايام وتجيء ، وهي تعمل عند من يحتاج الى الخدمة في البيوت بعد سحائب الضيق ، ويتلاشى العوز ، وينتهي عام ومليكة في المدرسة • يبدأ الصيف فتشتد عزيمة الام مع اشتداد الحرارة انها ستغتنم كل فرصة بحذر في سبيل ان تجمع المؤونة لطوارىء الزمن ، فمعلوماتها عـــن تقلب الفصول بدت واضحة ، وفي الايام التي لا تجد خدمة في البيوت ، تذهب ، وتحصد في حقول الشعير في ضاحية المدينة• ركنت الى الناس حولها ، اما مليكة واحمد فتتركهما أمام الدار يلعبون مع اولاد الجيران •

تجمع الحطب ، والشيح من الغابـــة وحتى الزعتر ، وتجمع حب الآرغان المتساقط ، فزيته الشهي نادر وعليه طلب ، واشجاره قريبة ، وتقوم ببيع ما تجمع من الحب لمن يهتمون بجمعه ، وتحصيل زيته ، تملأ حقيبتها التي صنعتها من الخرق البالية كل يوم ، وتضعها تحت الازار ، فتجد متعة كبيرة في ذلك العمل •

تجلس تحت شجرة آرغان ضخمة تظلها فتجمع الحب ، وتسمع صوت قمرية فوقها فتبحث ببصرها ، فتشاهد الانثى تدنو من فراخها لتفرغ ما في حويصلتها من غذاء في أفواه صغارها بين اعواد العش ، •• فتسعد ، وتثق بنفسها ، وبالكون •• ليت تلك القمرية تعرف معنى التصفيق اذا لصفقت لها •

ثم تمتلىء الحقيبة بعد فتتجه الى ادغال الغابة • تقترب من جدول صغير فتعب من مياهه ، تطرق ببصرها الى الماء وهو يداعب الحصى ، والزبد يتلاطم عند قدميها العاريتين ، فيغفو ويتراجع • تسمع شدو سنونو وغناء شحرور ، وهمس الاغصان ، فتنطلق وشوشة الاصوات لتحطم صمت الغابة •

تسرع ام الصغيرين في الجمع ، فتملأ حقيبها لترجع قبل الظهيرة الى حجرتها فهناك من ينتظرها • تقفل راجعة فتقطع الطريق بجمع الشيح الذي تبقى خضرته رغم الصيف ، فتنفع اعواده المرة امعاء المبرودين ، تصل الى بيتها ، فتضع حقيبتها تحت راسها فتغفو ، ثم تستيقظ على شجار مليكة واحمد فتوبخهما • وتذهب الى من تبيع عليه ما جمعت ، ويخطر لها شيء وهي ذاهبة •• يكفي ما عشته مع شجرة الآرغان ، انها شجرة خيرة ، حلوة ، ولكنني أشعر انها توقظ احساسي لا اريد ان تجرحني فأجرحها ، سأدفنها في عالم النسيان ، كما انني لا استطيع ترك مليكة التي بدأت تكبر •

انتهت ايام الغابة ، وباتت حلما واهنا يولي مع الزمن فيموت ، والطلب على خدمة أم مليكة على قدم وساق ، فتتألق الوجوه مع ايام الانس النابضة •

بلغ احمد السابعة ، فتدخله والدته المدرسة ، يخرج مع اخته وتراهما الام فتثب روحها الى السماء في اعتناق ثم تلبس ازارها لتخدم عند من ارتبطت بهن • وعندما تنتهي الخدمة تعود ، فتعد كل شيء لتابعيها ، وفي الليل يغيب تفكيرها ،

وتمد جسدها في الفراش اللين ، وتضع رأسها على وسادة جديدة لينة أقل خشونة مما ألفت ، فتمتلئ أهدابها بالنوم ٠

تغرق الجيوب بالفلوس ، وتزول الملابس البالية من على الاجساد فتصبح الاسمال حلما قديما كأيام الغابة ، عفت آثاره وانتهت الى غير رجعة ٠ ولا فرق اليوم عندها بين نهار ماطر أويوم قائظ ، المؤونة جارية ، متوفرة تملأ البطون وازيد ٠

اما الاب فقد امسى تحت غبار النسيان ، ودفن تحت حجب الزمن ٠ ولم يعد له ذكر ، ولا وزن في حياة الاسرة ، حتى تصل اخباره ٠٠ بان فناء الدنيا قد احتواه ٠٠ وجد كتلة هامدة ، تركد عند ناصية احد الازقة بقرب مقهاه الوضيع الذي كان يرتاده فيجد فيه مطلبه ٠ ولم يثر خبره شيئا في نفوس أعضاء الاسرة ، ٠٠ وليذهب مع الضياع الى الجحيم ، ليس لهم به حاجة ٠

اقبلت الاعوام على ام مليكه برصيد عجيب من أهل الفضل والاتساع ، فتكتسي العائلة بالجديد ، وتأكل ما حرم عليها في سوالف الأيام ، وتتبدل الأحذية الخربة ، ولا تدخر الام شيئا عن ولديها ، فمليكة تعدت العاشرة ٠

تفتحت عينا الام على تابعتها ، لاحظت انها تنمو فتزهو في نظرها وتبتسم ربة الاسرة في داخلها ٠ لن تحرمها من نعم الحياة اذا قدرت ، فالفتاة اصبح لديها رفيقاتها ، فهي ذكية الطالع ، مائسة القد ، جميلة المحيا ، نضرة ، رقيقة الطباع كزنبقة بدأت براعمها تورق وتزهر في أماسي ابريل ٠



كانت نساء الدرب يزرن الام ، فمليكه لم تعد طفلة في عيونهن ، وبدأن يهمسن في أذن الام ، لكنها ترفض فأملها ان تصل فتاتها الى نهاية رحلتها الدراسية ، ما دامت ذكية كما تلمس من الاوراق ، والجوائز التي تصلها ، تشيد بجهد ابنتها الخلاق ٠

انها سعيدة بتحصيل مليكه ، فلن تقف في طريق الابنة الدؤوبة ، فلتتزود بالعلم فهو معوان لها في حياتها ، وسيثري معرفتها ، وتأخذ الام على نفسها عهدا في ذلك ٠ ولم يقل احمد عن اخته في التحصيل ، وفي المستقبل سيكون هو رب الاسرة التي اخذت تعظم وتزدهر ٠ لم تعد علاقة الام بابنتها علاقة الاكل والشرب ، والامر والنهي ، بل أضحت حديثا موزونا ، تتجاذبان فيه شؤون الحياة ، في جو الصداقة الصافي ٠

تسرع السنوات ، وتتلاحق الليالي الزواهر ، وتقترب نهاية التحصيل الدراسي للفتاة ، انها على أعتاب قسم البكالوريا ٠ وتعتلج في نفس الام اشياء كثيرة ، هل ستنجح ابنتها ؟ انها نشيطة ، ولكنها صامتة ٠

وبينما ربة البيت الصغير جالسة تتحدث مع مليكة ، اذ بالخبر ينزل من السماء ٠٠ انه من احمد ، فيتعانق الثلاثة كل يقبل على الآخر فيصنعون جسما واحدا ٠
تنطلق الوجوه من غفلتها ، وتخرج النفوس العاملة من وجومها الذي ران عليها ذلك الاسبوع ، يلف النور بغلالاته العائلة فتسود المسرة التي غطت باشراقتها الصاخبـــة كل شيء ،

فتحيي موات النفوس · وتشعر الأم بلون الحياة ، وطعمها ، ورائحتها ، ستتوظف مليكة ، ستضع الام في احضانها ، ستتعب ، ستشارك في مسؤولية الحياة ، وتعد والدتها بذلك ، وتصر عليه ...

وتضم مليكة دنيا الوظيفة ، فتقبض في نهاية كل شهر ماهية تغني الام عن طلب الخدمة في البيوت هنا وهناك ، فتقنع والدتها بترك الخدمة الى أبد الآبدين ، فاصابعها تكاد تهترىء من استمرار التصبين ، وتطلب مليكة من الام ان تبحث عن بيت ، فالحجرة الضيقة المملوءة لا تتسع الآن ، ولا تناسب· وتجد الباحثة بيتا ملائما ، وتنتقل الاسرة لبيت في درب آخر ، ولكن غير بعيد عن الحي العتيق ·

تنتظم ايام العمر ، وتسير بالعائلة الرفيعة قدما مع الحياة النابضة ، وتلغي الام ساعات الخدمة ، فتستريح من الحركة الدائبة التي تركت آثارها ندبا على يديها فتلك صفحة في قعر مظلم رطب ارادت لها العائلة طوعا واختيارا ان تطوى حتى لا تستبين منها شيئا فتعكر صفو الحياة الرخية ·

- ١٦ -

اخذت مليكة عن والدتها المثابرة ، والنشاط ، وحب العمل ، فجلبت لها المحبة والاعجاب من اقرانها الذين يخدمون معها في الدائرة ·

وكم كان عزيز يتمنى لو انها تحييه كل صباح · انه احب

ذلك ، وآنس اليه ، ولكن غرفة مليكة في الطابق السفلي من
الدائرة ·

كان يتحرى اللحظة الدقيقة لمجيئها او رواحها · انه تمناها
زوجة ·· فهي حلوة تعشقها العين ، مهذبة ، ومتمسكة بكرامتها
يستطيع ان يعتمد عليها ·

لاحظ احد زملاء عزيز ما بدى على صديقه ، فيفاجئه عند
الرواح :

ـ عزيز ، هل هنالك جديد في الأمر ؟

ـ لا شيء يا عزيزي ·· ماذا ترى ؟

ـ هل وقعت في الشباك ؟ ويبتسم عزيز قائلا :

ـ في شباك من أيها العفريت ؟

ـ انت تعرف ·· قص لي الخبر ، ولا تخفي شيئا ·

ـ والله يا أخي لم أقع في مثل ما اتهمتني ، انما الشابة
أعجبتني ، فهي عند المستوى ، وآمل من الله ان يكون بيننا
نصيب ، هذا كل ما في الامر ، هل صدقت ؟ !

ـ نعم يا عزيز ، انت صادق كما عرفتك ، فاعذرني
اذا اتهمتك ، انماهو المزاح ، ويضحك الاثنان ·

ادركت مليكة ما يرمي اليه زميلها في الخدمة ، ولكنها
بقيت على خط سيرها · يسأل الشاب عن والدها لكي يوسط
حسب العرف والعادة ، ويحاول مرة اخرى ان يقوم بالمبادرة

بنفسه ، ولكن كيف ؟ انها لا تحب الخلوة على ما يبدو ، وليس هنالك مجال للالتقاء الذي سيستوعب حديثا ربما يطول ٠

يسمع عزيز بان والدها متوفي منذ سنين ، وانهم جاءوا لهذه المدينة منذ اربع عشرة سنة ٠

اقترح على نفسه ان يخرج من الخدمة في المساء قبلها بدقائق ، فينتظرها بعزيمة مضطربة وعندما وصلت اليه وهو يحدق في وجنتيها حيته قائلة :

ـ لا بأس عليك يا عزيز ٠

ـ لا بأس عليك انت ايضا ٠

ـ الحمد لله ٠٠ تفوته ، فيستوقفها قليلا ٠

ـ هل تسمحين لي يا مليكة ان نسير معا ٠

ـ نسير معا ! لماذا ؟

ـ لأمر ضروري ٠٠ اذا كان ذلك لا يسبب لك الازعاج ٠

ـ لا مانع عندي ٠

يمشي الاثنان ، ولكن بصمت ٠ اراد عزيز ان يتكلم ، فماذا يقول ومن اين يبدأ ؟ لتكون النتيجة مباركة ٠

حاول ان يختبر صوته ، فيحس بجفاف في حلقه ٠٠ يا للعار ٠ ان زميلته في الدائرة تنتظر منه ان يتكلم عن الأمر الهام ، انها لم تتعود ان تتأخر عن الوالدة ، ولم تمش مع

هذا الانسان من قبل ، فلماذا لم ينطق ، وماذا يريد حتى تسير بحالها ؟ وبصوت خافت نطق عزيز :

ـ هل ترتبطين يا مليكة مع رجل ما بوعد زواج .. امتلأت أسماعها ، فابتسمت بسمة جادة .. صدق ظنها ، انه يريدها فتجيبه :

ـ لا يا عزيز ، لم أرتبط بعد .

ـ ألم يتقدم شاب غيري لطلب يدك ؟

ـ ربما حدث مثل ذلك ، ولكنني أماطل ، فانا المعيل الوحيد لاسرتي .

يتجرأ عزيز أكثر فيخاطبها :

ـ معنى ذلك أنك تقامرين بمستقبلك .

ـ ان والدتي ، واخي هما أعز أجزاء المستقبل عندي .

ـ هل تنكرين الزواج وهو نهاية كل انسانة مثلك ؟

ـ لا انكره ، انما اذا رضيت به اليوم فمن يعيل والدتي واخي .. هل أترك والدتي تعود للبحث عن خدمة ، فتقرع الابواب ، وتجتاز العتبات ؟ .. واخي في عامه الدراسي الاخير ، فالظرف كما تلاحظ دقيق للغاية .

يقترب عزيز من بيت مليكة ، فيصمت الاثنان ، ويودع الشاب وداعا هينا . لن تتكلم مليكة الى الأم الحبيبة ، فمن الراتب تغطي نفقات البيت ، فاذا سمحت لنفسها ان تتكلم عن

زواج فمعناه انها تعيش لذاتها ، وانها نسيت ولفضت على اخيها وهو على أبواب الامتحان الاخير ٠٠ لننتظر قليلا ٠

تمر اسابيع واشهر وعيون الاثنين تلتقيان ، وكان كل واحد يناجي الآخر بالحاظه فيستقر في وجدانه ٠

تظهر نتيجة الامتحان فيثب قلب الام ، واحمد لا يهزه الفرح ، فهو جاد وصموت كأخته ، وتنبثق المسرة الثانية في حياة الاسرة ٠ وتسعد ام الاثنين ، وتبتهج مليكة ، ويستعد احمد لان يكون المسؤول عن العائلة ، فلن يبقى حجر عثرة في سبيل اخته التي ادت دورها ثلاثة اعوام ٠ انه اليوم موظف ، وسيحمل اوزار العائلة ، وشؤونها ٠

اما الوالدة فكانت نظراتها تلاحق جسم ابنتها المرتوي ، ومشيتها المتئدة ٠ ان مليكة ليست مسؤولة اليوم عن تصريف الأمور ، تأتي من خدمتها في الدائرة فتطالع الصفحات ، وتداعب ابرتها ، أو تساعد الأم في صناعة زربيه ، وقد تزور صديقة لها احيانا ٠ وتتمنى الأم ان تعيش ابنتها التي تعدت الثالثة والعشرين يومها الموعود ٠ وترمي الأم الكلمات فتبتسم مليكة بصمت ، وتتجاذبان شجون الحديث ، وتكثر بينهما الدعابة ، تذكر الوالدة ان فلانا من الناس ارسل أمه لطلب يد مليكة ، وهو شاب لا يزيد عن عمرها الا خمس او ست سنوات فيما يبدو ، ومن عائلة محترمة ، وممتلئة ٠٠ فوعدتها خيرا ، وما علينا الا الموافقة الاخيرة ، وهي منك يا ابنتي

فربما تخجلين من هذا الأمر ، رغم انك لا تخفين عني شيئا ٠ فانت في سن الزواج واكثر ، فماذا ترين ؟

سمعت الابنة فكأن مدية عريضة غرزتها يد غريبة في تضاعيف قلبها ، ٠٠ انها لا تبغي ان تكون تلك القوة هي من يد الام ، فتتجه الى محدثتها قائلة :

– وكيف تعدين تلك المرأة خيرا يا أمـــاه ، دون ان تسمعي كلمتي ؟

– عزيزتي ، انني لم أهمل رأيك بعد ، درست المسألة في عقلي ، وعرضتها على نفسي ، مرات ومرات ، فوصلت الى قناعة ٠ فالشاب يستطيع ان يسعدك ، فهو من عائلة معروفة بالأصالة ، والصدق ، وظننتك ستوافقين فلا تغضبي ٠

– يا والدتي خمسة اعوام ، او ستة اعوام بيننا لا تهم ، ولكن اسم العائلة وصفاتها قد لا تنطبق دائما على جميـــع افرادها ، فاسمها ليس قيدا ، ولا حرزا يحفظ الفرد مـــن الزلل ٠

– تعرفين عني الصراحة معك يا مليكة ، انت حرة فان افرض عليك رأيا ٠ اختاري ، وانا سأنفض يدي من هذه المسألة ٠ يروق لي ان تختاري ، ولكن بتعقل يا ابنتي ، حذار من أصحاب الوعود البراقة ، حذار من النتيجة التي ستتحملينها انت وحدك ، واتمنى لك حسن الاختيار ، وطيب النتيجة ٠

ـ بارك الله فيك يا أماه ، وأطال عمرك ، وتقترب مليكة دون وعي الى الام فتقبل جبينها ٠

جرى الاتفاق بين مليكة وعزيز ، واشعرت الفتاة امها ، وجاء الشاب ليطلب يد صديقته من أمها ، ويتم اعلام احمد الذي بارك الاثنين ٠

تهدأ الحال ، وما هي الا اشهر ، وتتوثق علاقة الزوج بأحمد ، وبأم مليكة ، فتصبح العائلة واحدة ٠

وتشعر مليكة بدفيء الزوجية وبسطة الايام ٠٠ تحمل لوالدتها خبرا ، انها حامل ، وبعد فترة تضع ولدا ٠ تنفرج شفتا ام مليكة بضحكة سائبة ٠٠ آه لقد أصبحت جدة ٠٠ ولكن السعادة التي لاحت في الفراغ لن تكتمل الا في اليوم الذي يتم فيه زواج ابنها ، ورؤية أولاده يختلطون بأولاد الاخت ، وفي ذلك الحين ستصل الجدة الى غاية النشوة ، وكمال السعادة ٠ وتجود السماء على مليكة بحمل آخر ، فتفاجيء الجدة ابنها في جلسة الظهيرة ، في دار ابنتها :

ـ ان اختك تزوجت منذ ثلاث سنوات ، وانجبت والحمد لله ٠٠ وانت ، متى ستتزوج يا ولدي ؟

ـ متى سأتزوج ؟ لماذا العجلة يا أماه ؟

ـ لا يا ولدي ، بركه عليك العزوبية التي قضيتها ، فكر بالزواج ، وانا على قيد الحياة ٠

ـ وانت على قيد الحياة ! ٠٠ طول العمل لك يا أماه ٠

وتتدخل مليكة ، ويتكلم عزيز بوجه باسم :

– أنا أقترح عليك يا أم مليكة ان تمهلي احمد ، ولنصبر معه على شرط ان لا تزيد المدة عن سنة ، واذا لم يأت لنا بخبر ، سنفرض عليه ما عندنا ، فنحن ثلاثة ٠٠ ما رأيكم ؟ وترد مليكة على الزوج في الحال :

– نحن موافقون ، والمدة كما ذكرت ٠ وتنفجر الافواه بالضحك ، ويجري الحديث أما الأم فانها احتجت ، فاشهر السنة عديدة ، وطويلة ٠

ويذهب الشتاء ، ويأتي الربيع ، ويتبع صيف ، تمر سنون ثلاث ، واحمد لم يفكر بالامر جديا ، لكن والدته تلح عليه فيماطلها ، فتستعين عليه بعزيز الذي يحترمه ، ومليكة التي يقدرها حق قدرها ٠

تلاحقه الاخت بحديثها ، ويدخل معه عزيز بحديث على انفراد ، ٠٠ ان الزواج هو جزء من النظام المسنون في دنيانا ، فعلينا ان نحترم نواميس الوجود ، فنحن ما خلقنا لنبقى عبثا ٠ لا لزوم لان تبقى عازبا وانت قد اجتزت جزء من شبابك ٠

فيعد احمد عزيز ، وتختمر الفكرة في ذهنـــه ٠ تبدأ العروض والمشاورات ، ويزداد القلق والتردد ٠ لم تطل المدة فخديجة شابة من نفس المدينة ، ومن الحي الوسط ، لا تعمل بدائرة ، ولا ترتبط بوظيفة ، وهي صديقة محترمة ٠ لن يفرط بها احمد ٠

- ١٧ -

اتجهت الام في يوم الجمعة الى الحمام ، الوقت معهـــا فالساعة هي الواحدة ظهرا ، والمكان محجوز للنساء ٠ وبينما هي في الطريق اذ ببصرها يقع على الانسان الذي شاهدته في المدينة مرات وهربت من طريقه ، فابتعدت عنه ٠ وقع نظرها عليه فيرمقها بشراهة ٠٠ هل هي رشيدة ؟ ! ويلتقي البصران كأنهما لا يريدان ان ينكسرا ٠

اقترب فلم يعد بينهما الا متر واحد ، بقيت ألحاظه عالقة في الفراغ ، انه غير خال الذهن عن هذه الانسانة التي سمع بانها في مدينته ، ويهمس في أغواره ٠٠ نعم انها هي :

ـ لا بأس عليك يا امرأة ٠٠

ـ لا بأس عليك ٠

ـ هل أنت بخير ٠٠ والاولاد ٠٠ هل هم بخير ؟

ـ بخير والحمد لله ٠

يستغرق الاثنان في حديث ليس له آخر عند طـــرف الدرب ٠ ويفترق صديقا فجر الصبا ويترك كل واحد صديقه ويستأنفا المسير ، وينكس كل منهما رأسه في أديم الطريق ، ويلفهما عالم الذكرى ٠

اتجه سعيد الى منزله بعد شراء بعض الحوائج الى زوجته حليمة التي لم تنجب ٠ عاش تلك الليلة بتأملاته ٠ وتستغرب الزوجة فتسأله ، ويرد عليها ، ٠٠ لا جديد عنده ٠

انتهت وجبة العشاء بسرعة ، وتضم الاثنين جنبات السرير ·· اتجه الى السقف ببصره من خلال الضوء الخافت كأنه يبحث عن شيء دفن في جزيئات الجدار ، فيصل فكره الى ايام حبه الموءود ·

التفتت اليه الزوجة من طرف عينها اليمنى ·· هل ما زال يقظا ؟ استدارت نحوه ، فتخاطب ذاتها ·· صحيح انه وقع شجار جديد بينه وبين موظف آخر في دائرته الجمارك ، فلقد حدث ان قال لي بانه تخاصم مع موظف في الديوانية ، ماله وما للموظف ، لماذا لا يتحشاه ؟ هذا هو طبعه ، سامحه الله ، لا يسمع نصيحتي ، ثم تقطع تأملاته في الحال :

ـ ما زلت تتخاصم مع الموظف ؟ اتفقنا على ان تنساه ، ولا تتعرض له ؟ رحم الله والديك · لم يجبهـــا الزوج الا بابتسامة ضئيلة ، انطلقت من شفتيه فلم تشاهدها الزوجة في الضوء الخفيف ·

واكب الرجل معظم ليلته في صحبــــة الارق المقيت ، وانسربت اليه أخيلة متعددة ·· ان ايامه بدأت تفيق في الثامنة والاربعين ، هل سيطلب الزواج منها هل يذكرها ؟ وهل هي التي أحبته بقلبها ، وروحها ، ما زالت تشعر كما يحس ام نسيت ؟

رغم كل شيء سألاقيها واقدم لها ما في نفسي · اما رشيدة فبقيت تتذكر ما مر معها ، فيغشاها مشهده الذي

هفت روحها اليه في صباها ، ولكن الاقدار اختارت غيره ،، عندي الآن مليكة واحمد فهمـــا دنياي ، فحياتي ليست هباء .. !

جلست بالقرب من الشرفة تطالع بكتاب من كتب ابنتها، واذ بها ترى هاتف الليل الذي اختلس جزءا من الوقت خلال الخدمة في دائرته ، جاء يخترق عليها حدودها ، .. لماذا جاء ؟ هل أسمح له بالدخول ، ام أكتفي بالحديث معه في الخارج ؟

هبطت الدرج في تردد ، ودون ان تدري سمحت لـــه بالدخول .. تقدم له الشاي الصيني الاخضر ويدخلان من نهاية حديث الامس .. تعطيه نتفا من حياتها ، ويخاطبها :

ـ لماذا ترفضين يا رشيدة .. ليس في ذلك جريمة !

ـ لا استطيع يا اخي ان أوافق ، لا ابغي الدخول على حياة زوجية مع رجلها .

ـ لقد اخذت موافقتها قبل ان آتي اليك .

ـ انت مدير ، وانا لم اعد انفع للزواج ، فقد تعديت الخامسة والاربعين .

ـ ما زال فيك ذرية يا رشيدة ، وانا لم اكن ابا حتى هذه اللحظة ، انني ارغب في الاولاد .

ـ ليس الاولاد كل شيء في الحياة .

ـ ما رايك اذا كنت اعشق الذرية ؟

– عليك بالزواج من فتاة اذاً ، أضمن اليك ، وقلت لك انني تعديت سن الانجاب ٠

– انت أفضل من أي فتاة ٠٠ صدقيني ٠

– ولكن لا تنسى انني جدة ٠٠ ماذا اقول لمليكة ، واحمد ، وعزيز ؟ هل أقول لهم ان في نيتي أن أخطب ؟

– ليس في الامر عيب ، ولا مجازفة ٠٠ انني أرى بان تصرفنا بعيدا عن الاعتباطة ٠٠ سأقنع مليكة والبقية اذا حاولوا المعارضة ٠

ويحاول ان يأخذ منها وعدا ولكنها ترفض ، وتؤجل البت في الأمر الى حين ٠

لم يترك الرجل موضوعه ، راح يمني نفسه في قاعة مكتبة ٠٠ بانه سيقنعها يوما ما فتتكدس الأوراق أمامه ، ويطلع الزوجة على ما في نفسه ، ويذكرها بالموافقة القديمة ، يوم اراد الذرية قبل سنين ٠

لاحظت الزوجة اثر الجد في كلامه ٠ تبعثرت نظراتها ، وكلماتها ، فيخاطبها الزوج :

– انت التي وافقت في الماضي ٠٠ أليس ذلك صحيح ؟

– نعم ٠٠ ولكن ٠٠٠

– ولكن ماذا يا حليمة القاسية ؟

– قالت لي احدى الجارات ان هناك طبيبا متخصصا سيأتي للمدينة ، ٠٠ فانتظر ٠

ـ انتظر ؟ ! لقد مللنا الاطباء ، والانتظار ، لم تبق في جيبي فلوس ٠٠ ارسلتك حتى لأبعد الأطباء ، ولم نستفد ٠

ـ تصبر حتى يأتي الفرج ٠

ـ سأتزوج ٠٠ هذا هو الفرج ، فهل لك شروط ؟

ـ سأوافق على شرط ان لا أراها تدخل علي البيت ٠٠ لأنها خاسرة ٠٠ وتنطلق الدموع ٠

ذهب الزوج الى الخدمة ٠٠ وترفض وجبة الفطور ، تبقى حبيسة نفسها ٠٠ ها هو اليوم يبغي الزواج ، نسي بأنني رضيت به ، ورفعت من قدره البسيط ٠٠ كان والده من خدم أبي ٠٠ سأقول لكل النساء بانه هو الذي لا ينجب ٠

أخذ سعيد يتعرف على مليكة ، واحمد من طرف خفي حتى يصل الى مبتغاه ، ولكن احمد كان مشغولا عنه ، وعن غيره بخطيبته التي يرافقها كل مساء ، يتجولان بين اركان الحديقة العامة ، ثم يتجهان الى اطراف المدينة عند منعطف مخضر فيجلسان ٠

وفي أعقاب ذلك النهار يشعر احمد بتثاقل خطواته ، لكنه يتجه مع خطيبته الى دارها ، ويمضي ليلته عندها ، وفي الصباح يميل على الدائرة ، انه يحس بألم يضغط على عموده الفقري ، وينقضي نصف الاسبوع ولم يحتمل الشيء مراوغة ٠ يذهب الى الطبيب فيحوله الى المستشفى لاجراء فحص مخبري ٠

لن يذكر شيئا للام .. انه مصاب بالكلى ، وتعرف الخطيبه ، وتنتهي الأخبار الى اسماع الام التي تسال عن المرض فكان النهار ينقلب الى ديجور ظلام في مقلتيها .

عودتها الريب تقارعها ، وتقاسمها لقمة العيش ، وتحاول مليكة ان تخفي ما اصابها ، وتخاطب والدتها :

ـ انه مرض عادي لم يبلغ الخطورة .

ـ كيف ذلك والأمر هو الحصى من الوزن الكبير ؟

ـ لا يهم ذلك فالطب متقدم ، والادوية تذيب الحديد .

ـ انني أخاف من العملية يا ابنتي .

ـ اطمئني ، الاعتماد على الله وتناول العلاج بالنسبة لاحمد ، وما هي الا ايام حتى ترين ابنك بصحة عجيبة .

ـ انني أخاف عليه ، احب ان اراه دائما ، واتمنى رؤية اولاده ، لكنه كان يؤجل من يوم الى يوم حتى اقترب من السابعة والعشرين .

ـ لماذا تضخمين المسالة هكذا يا اماه ، ان احمد في المستشفى بالف خير ، وتحت الرعاية ، ونحن وخديجة جميعا نزوره كل صباح . ولقد اوصى عزيز صديقه الطبيب على اخي .

ـ هل أنت متاكدة من النتيجة يا ابنتي ؟

ـ نعم ، مثل ما أراك الآن .. توكلي على الله .



تتوالى الساعات ، والجميع يواكبون احمد ، وتزيد عليهم خديجة التي تتعجل الثواني لتقضي معه ليالي العمر ، وليلتقيا على المنحنى المعتاد الذي يحاذي اطلال المدينة القديمـــة ، ويجلسا تحت اشعة الشمس الدافئة ، ثم ينعطفا مع الاصيل نحو المنزل • ولكن الايام تصل الى أزيد من شهر واحمد ما زال باقيا في مستشفاه • وتنسى الام طعم الاكل ، فلماذا يطول مقام ابنها بعيدا عنها ؟ لو كان مرضه بسيطا لما طال وتسأل الناس عن المرض فتزداد حسرتها ، وتجول الدنيا بعينيها ، فلا تجد جوابا شافيا •• يذكر لها عزيز بان احمد يخضع الى فحوص مخبرية كل يومين حتى يرى الطبيب اثر العلاج ، فذلك يتطلب وقتا ليس بالقصير •

تبغي الأم معرفة النتيجة بسرعة ، وتخونها اعصابها • انها ترى ضاربة الفال كل اسبوع ، فلماذا لا تجلس مع تلك (الشوافة) ولو لفترة حتى تخبرها عن المستقبل ، وما يخفيه فيطمئن قلبها ربما ! وتطلب ام مليكة من ضاربة الودع ان ترى لها امرها ، ومستقبل دنياها ، فتخرج تلك المرأة ادواتها من كيس جلدي صغير •• تنظر الى السقف عدة مرات ، تتمتم ، ثم تهمس مع نفسها ، وتسرح مع عالم الخيال بعد ان عرفت جزءا من حياة جليستها •

تجمع الضاربة حجارتها ، وتضربها ببعض اكثر من مرة فيسمع صوت الادوات بشدة • وتسألها أم مليكة :

ــ هل رأيت شيئا •• عن أحمد •• وعن •••

ــ نعم رأيت كل شيء في حياتك •

ـ انطقي بكل ما ترين ، ولا تخفي رحم الله والديك .

ـ اسمعي .. حياتك تطول .. نهارك يضيء ، وليلك فيه سواد .. نجمك ، مرتفع مثل الشمس وقت الزوال ، ها هو ، انني أرى .. هنالك شيء في حياتك يقلقك ، ويتعلق بقريب لك .

ـ صدقت يا عمتي ، بارك الله فيك .. انه احمد ما زال في المستشفى .. ثم ماذا هناك ، قولي ؟

ـ انت سعيدة اذا قضيت حاجتك يوم الثلاثاء ، واحذري من يوم الخميس ، انه لا يناسبك .. !

آه يا بنتي ، وتميل المرأة برأسها الى الجدار فتعود .. اسمعي يا امرأة انني أحب لك الخير فاحذري امرأة تدخل عليك ، لا هي بيضاء كثيرا ، ولا هي سوداء .. اجعلي يدك مفتوحة ، ولا تردي من يحب لك الخير .. ايه يا ابنتي ، هنالك امرأة أخرى تحسدك .. من اقربائك .. الله يعلم بها .. سيمر عليك حادث يزعجك ، فاستعيني عليه بالصبر، ولا تتألمي .

تجمع المرأة أدواتها ، وتضعها بكيس الجلد المتآكل بسرعة ، وهي تحرك شفتيها . وتعطيها ام مليكة أجرة سخية ثم تمضي لتجد لها امرأة اخرى .

وتعلق الكلمات بذهن الأم .. حادث يزعجني .. واستعين عليه بالصبر .. استغفرك يا الهي واتوب اليك .. ما هو هذا الخبر ؟ ربما يتعلق بأحمد .. لا يقلقني الا ولدي، فمرضه الذي يعاني منه صعب .. آه لقد عشت لولدي ،

وابنتي ، وها هو احمد لم يدخل البيت اكثر من ثلاثين يوما . هل يعقل كلام الشوافة ؟ .. ان الكتب التي أطالعها أحيانا تنفي ذلك . والناس .. هنالك من يقول بان ضاربة الفال تصدق .. لا أدري .

وتهجر الأم نفسها ، وتركن الى خلوتها . استهانت ببصرها ، فلم تترفق بعينيها اللتين أدماهما الزوج العتيق ، وكاد يتلف نسيجهما .

تتردد على المستشفى في كل يوم ، وكل زيارة وبرفقتها مليكة ، وعزيز ، وخديجة في سيارة عزيز ، ويعدها الطبيب مع الصبر بجدوى العلاج ، فلا داعي للخوف او العجلة . وفي اليوم التالي ستأتيها النتيجة في المساء بعد فحص مخبري جديد . لتنتظر لمساء الغد اذآ ، وتبقى مع الصمت والدموع ومع رتابة الوقت ، وقسوة الانتظار .

يأتي الغد ، ويزداد وجيف قلبها .

وبعد زيارة اليوم السابق يمر المريض على الفحص المخبري ، فيقترح الطبيب اجراء عملية ، قد تكون مستعجلة اذا جاءت التحاليل مناسبة في صباح الغد .

ويقبل المستخدم الذي تترقبه بالنتيجة .. جاء البريد ، ولا جواب كما تريد .. ويعطيها الرجل ورقة .. تفضها ، وتدفعها اليه لكي يفك رموزها فهي بالفرنسية .. يجب ان تحضر الى المستشفى لكي توقع على عملية ابنها في الايام التالية .

لم تدر الام اين هي ، ماذا ترى امامها ؟ شعرت بانها تموج ، وتغوص في أديم الارض . شملها فتور مفاجيء ،

ولكنها ستتحرك . ذهبت تجر أقدامها ، .. صدقت الشوافة ، سيمر علي خبر مزعج ، وها هو قد جاء .. لا بد ان تلك المرأة أخفت عني الكثير ، حاولت ان لا تضايقني .

بقيت الام في طريقها ذاهلة ، وكادت تفوت المكان ولكنها ارتدت اليه . اندفعت نحو الباب ، ويعلق جزء من ازارها بحديد الباب فيمزقه .. لا رده الله .. انها تريد ابنها . يحاول (العساس) ان يستوقفها ، فلا تعبأ به . يتبعها فيلقي أوامره عليها ، ويزيد :

ـ لماذا انت حمقاء ، لا تردين على كلامي ؟ !

ـ أنت الغبي ، الاحمق ، ألم تعرف لماذا جئت ؟ لعنة الله عليك .. صحيح انك فالس . تنحى الحارس عن طريقها ، واتجه الى مكانه ، ثم انتهى الى مقعده الحديدي يستغفر ربه .

دخلت الام ، واستحثت خطاها من خلال حديقة المختبر . اجتازت الابواب ، ثم وصلت الى سريره لترتمي عليه باكية ، ويبتسم قائلا :

ـ لماذا تبكين ؟ من الذي جاء بك هذه الساعة ؟

ـ لقد ارسلوا لي .. حتى .. أوافق على عمليتك .

ـ اجلسي على الكرسي ، وارتاحي اولا .

ـ جلست .

ـ العملية سهلة جدا ، وربما لا تتطلب موافقتك ، فانا وافقت عليها ، وصافي .

ـ العملية الجراحية ليست سهلة ابدا .

ـ سهلة ، قلت لك ، اجريت لغيري ٠٠ فانا باق كالصخر الصلد ٠٠ صحتي تتحسن ، والحمد لله فلماذا البكاء اذاً ٠٠ ارحمي نفسك يا والدتي ، ترفقي بنظرك ٠٠ اين قوة قلبك ، وصبرك ؟ حشومة(١) هذا الشيء ٠

يدخل الطبيب ويلومها عندما رأى دموعها ، ويذكر لها بان العملية لا تستوجب ذلك فهي ليست خطيرة ٠٠ هذا اذا لم نؤجلها لفترة اخرى ، اذا كانت الظروف مناسبة وهو الافضل ، وطلبنا توقيعك وان كان غير مهم ، وستكون النتيجة سليمة باذن الله ٠

توقع الام فيخاطبها الطبيب قائلا :

ـ آه ما أجمل امضائك ، يشهد الله انه اروع من توقيعي ، فيضحك جميع من في الغرفة الذين لحقوا بالام ٠

يخرج الثلاثة من المستشفى ، فيودعهم المريض بنظراته المتوانية ، وبكلماته المجهدة ٠ تنطلق الام بدموعها ، وتغرورق عينا مليكة بالدموع ، فتسرع لتسير بالمقدمة ٠ ويصمت عزيز مغلوبا على امره ، فلا مكان للكلام ، ولكنه يضج من صمت الطريق ، فيحاول تهدئة المشاعر الثائرة المتأججة التي زاد اوارها ٠

اجلت العملية لوقت آخر كما اقترح الطبيب ، ليكون ظرفها مناسبا ، ويزيد ذلك من قلق الام التي لم تتذكر من دنياها سوى أحمد ، وكاشفة الغيب ، والمستقبل ٠ فتجافي عيناها مضجعها ، وتتضخم اجفانها ٠

---

(١) عيب ومخجل ٠

تضايقت من الخلوة ، فراحت تسير حيث تتحرك قدماها وتجلس حيث تنتهي الطريق ، وتقعد على حافة الوصيف كأنها تريد ان تتمتع بناظريها ، يراها المارة ، وتكاد لا تراهم.

- ١٨ -

يراها بجلبابها فيبتسم لها ، ويسير نحوهـــا ليجلس بقربها ، ويأنس بحديثها . ويتساءل ، لماذا تجلس رشيدة هنا ؟ وهي لم تهتم بي ، يتوقف قليلا ، خامره الشك ، ويعود لنفسه .. كأنني أراها قد تغيرت .. مالها تشيخ ، وعمرها لم يهرم بعد وكأنها تفوت الزمن . يدنو منهـــا فيخاطبها :

ـ لا بأس عليك يا رشيدة .

ـ لا بأس عليك .

ـ ما بالك يا أم مليكة ، لماذا أنت هنا وحيدة على قارعة الطريق ؟

ـ ابعد عني .. فما حاجتك بي ؟

ـ انا الذي أبعد عنك ، ماذا جرى يا رشيدة ؟

ـ قلت لك ابعد عني ، ولتكن من تكون .

ـ ألم تعرفيني .. هل نسيتي سعيد ؟

ـ اتركني يا أخي رحم الله والديك .

ـ أعانك الله ...

وتضحك رشيدة ساخرة .. أمره عجيب والله ، يريد الزواج من امرأة اقتربت من السادسة والاربعين .. يتذكر القديم ويصر عليه ، غريب تصرفه ، الا يستطيع ان يسيطر

على قلبه ، وقد فات الماضي ؟ لماذا لا يعمق أسراره ، ويرضى بواقعه ٠

مضى سعيد ، ثم يلتفت اليها من بعيد ٠ انها باقية على طرف الرصيف كالصخرة ٠٠ ويتلاشى ظل الرجل من الطريق ٠

شعر بان الدنيا قد انقلبت على وجهه ، وأطبقت على قلبه لتسحقه ، ويصل بتفكيره ٠٠ الى الايام التي ابتسم فيها حيث جاء بارق الرجاء ، ولكن امله قارب لحظة الغروب ، والانتهاء ٠٠ ان كنزه كان بين يديه ، ولكنه لم يستطع ان يغوص فيسبر أغواره ٠ ولم يملك القدرة على فك طلاسمه ، وتحليل رموزه ٠٠ ولم تسعفه الامواج ، ولا قوة المجداف في رحلة الابحار ليجد نوع البخور ، فما عليه الا ان يثني شراع زورقه ، والخلود الى الراحة ٠

ويزيد في حديثه مع نفسه ٠٠ لقد كان ردها شرسا ، تترك فرصتها الذهبية فلا تعود معي الى شبابها المغمور ، تذكر أولادها ٠٠ فما حاجتهم بها ، فهل مصيرها يتعلق بهم ؟ كم هي مخطئة ! لأرجع الى زوجتي ٠٠ لأعود الى حليمة ، فحياتنا لا تخلو من السعادة ٠

جاء يوم اجراء العملية ، والكل يراقب الآفاق ٠ تستيقظ شمس النهار باسمة ، فتبتهج الاخت ، ويشاركها عزيز ، وخديجة ، أما الأم التي نقل اليها الخبر فهي باقية ، ولن تصدق حتى ترى ٠

ولم ينقص احمد الا ان يعود الى دائرته ، ثم يعلن زواجه فيستقر مع خديجة في جوار الأم تحت سقف واحد ليشعر بخلاصة السعادة ٠

لم ير الأم ، ولكنه لم يتعجل بالسؤال حتى وصل الجميع الى دار الاخت ، فيجدون الام هناك ، فيندفع الابن نحوها ليضعها بين ذراعيه ...

– كيف أنت يا والدتي ؟ لم أرك منذ اسبوع !

– احمد يا ولدي ليس ذلك بصحيح ، هل جئت ؟

– صحيح ، وألف صحيح !

– ولدي الآن أنا أعيش ، لأنني أراك ، وتتفجر دموع الام ، وهي تبتسم . ويجلس الجميع ، يميل عزيز نحو مليكة قائلا وهو يخلع بعض ملابسه :

– عمري لنا ابريق الشاي في الحال .. نعم عمري براد الشاي .

– لا يوجد النعناع .. انزل الى الحانوت السفلي ، واحضر لنا حزمة ، .. وتدار كؤوس الشاي الاخضر ، ويهمس أحمد في أذن مليكة ..

– ان صحة والدتي على غير عادتها .

– انها يا أخي منذ وجودك في المستشفى نسيت الاكل فيجبرها عليه عزيز اجبارا ، فها أنت تخرج من المستشفى ، ولله الحمد ، بصحتك القديمة وأزيد .

– نتمنى لها الصحة ، ونرجو ان يسعدها خبر زواجنا المقبل ، والاعداد له .

– ومتى تقترح ذلك ؟

– ما هو اقتراحك انت ، او اقتراح والدتي ؟

- اسمع يا احمد ، من تلزمه النصيحة يلزمه العمل . انني انصحك ان تبقى مدة نصف عام تريح جسدك ، وبعد ذلك نعد للزواج عدته ليكون زواجك المبروك .

- علينا أن نأخذ رأي الأم .

- لا فرق بين رأيي ، ورأي والدتي ، وان كنت اتوقع منها الطلب بالاسراع ، فأرجو ان تثق بكلامي ، فراحتك الآن هي أهم من كل شيء .

- كلامك هو عين الصواب .

ويفاجيء عزيز الأخوين قائلا .. الا يكفي همس لا يوجد بينكم أغراب ، ولم يعد للأسرار في زماننا وجود . يضحك الجميع ، ويتوغلون في احاديث مختلفـــة حتى يصلون الى زمهرير الشمال الذي راح يتراجع ناحية البوغاز .

تتحسن صحة الام ، وتنتقل مع ابنها الى بيتها المنسي الذي خيمت عليه فترة من الصمت ، فاستقرت عناصره تحت جزيئات الغبار .

وتقبل نساء الدرب ليباركن لها بسلامة احمد ، فتسعد بمعارفها من جديد ، وتنتقي جلبابا من البستها بلون الورد ، فتبدو اكثر نشاطا .. تنظم نبتات الزينة فتسبغ على البيت آفاقا حالمة بحركاتها ، وبعطرها الذي يتضوع من اردانها .

تلتقي بخطيبة ابنها التي تزورها ، فتحاول البحث معها في الزواج ، والاسراع فيه ، فتقنعها خديجة بان الافضل ان تنتظر قليلا حتى يسترجع احمد نشاطه .

يعود احمد لأصدقائه القدماء ، ويدخل عليه اصدقاء جدد ، وتمتد الايام ، ويأخذ الوقت جزءا من ساعات احمد

فيتراخى في مسألة الزواج ٠ وتمر ثلاثة اعوام ٠٠ فيحاول ان يتخلى عن الخطيبة ٠٠ يبقى على ذلك مدة طويلة وكأنه بدأ يتنكر لمن حوله ٠٠٠

يكثر الجدال ، والنقاش بينه وبين والدته ، وعزيز ، ومليكه ، ٠٠ يشتدون عليه بكلامهم ، ويقولون له بانه تغير ، وقرب من دوامة الضياع ٠

ويهرب من سقوف البيت ٠٠ والكلمات ٠٠ يمشي مع هذا ، ويترك ذاك حسب قيمة اللذة المطروحة ٠٠ يجتاز كل حي ، ويخترق كل درب مع عهار الظلام عندما تخبو أضواء المدينة ولا يبقى الا اصوات الكلاب والريح تكرر اصداءها نحو المنحدرات ، وعند حواف الجدران ، وفوق الارصفة ٠

كانت الأم تتمنى ٠٠ آه لو يعود لينتظم في أسرة ٠ لقد بدأت أتذكر ما ضينا الذي طمرناه تحت ركام ايامنا التي اخذت تشرق ٠٠ ولكنه لن يفلت من يدي ٠٠ حتى ولو عاودتني الظنون ٠ تتصدى له فينطلق صوتها متأرجحا بين النصح والردع ٠٠ تذكره بصورة ابيه ، وتشيح بوجهها عنه ٠٠ يهمس في جوفه ٠٠ مللت تيار الحياة وروتين اللذة ٠٠ اشعر بانني أسير في طريق بلا نهاية ، فما هي النتيجة ؟ وهي تكرر دائما ٠٠ والدك ٠ ! والدك ٠ ! ولكن صحيح ما سيرته ؟ ومن كان شاهدا على نهايته ٠

الوسادة كانت لينة ، والفراش وثير ، النوم يحلو حتى بملابس العمل ٠٠ الشبح بلون أصفر باهت ، وهندام متناقض ٠٠ الفم رمادي ، والاسنان صدئة ، والصوت بحدة السعال ٠٠ زائر الليل له اجنحة ٠٠ وابعاد ٠٠ يغطي المكان



حتى السقف ، ويزيد ٠٠ يكبت الانفاس بجسمه الرصاصي، وشعره المتعفن ، وأظافره الطويلة العارية ٠٠ ويفر الشاب مذعورا وهو يهذي ، فترد عليه الام ٠٠ ماذا بك ؟ ! ٠٠ باسم الله ٠٠ السلامة يا رب !

ـ أنا ٠٠ أنا ٠٠ لا شيء ٠

ـ توكل على الله ٠٠ والعن الشيطان ، وارجع لمنامك ٠

استقر على كرسي وراح يتثاءب ، أخذ يتجول في اركان البيت ثم انسل الى الزنقة ٠٠ الى حي الملاح ٠٠ سمع صوت الدف ٠٠ دار الفرح عامرة بالاهل والاصدقاء ، والراقصة تتلوى بأعطافها ٠٠ حدجته بنظرة خاطفة ، ولكنه بقي على مقربة من الباب ٠٠ لم يضع ورقة تحت حزامها في مقدمة الخصر ٠٠ نظرت اليه متحسرة معاتبة ٠٠ همست بخصرها مرات ، ومرات ٠٠ ينادي أحدهم ٠٠ تقدم يا سي أحمد ٠٠ انشط ٠ رفعوا العروس ببساطها فوق الرؤوس ٠٠ الا انه رجع من حيث أتى ٠

لحق به صوت ٠٠ سي احمد ٠٠ سي احمد ، سولت عليك وقلبت ٠٠ انتظرتك حتى العاشرة ٠٠ ورجعت استقصي صوبت البراد ديال(١) الأتاي ٠٠ والتعميرة ، وعلاش ما جيت ؟ ٠٠ مشطون(٢) ٠٠!؟

ـ ما بغيت ٠٠٠

ـ علاش ؟ ٠ هدرتك(٣) ماشي بحال هدرة سي أحمد اللي أنا عرفته ٠٠٠

ـ اقول لك بالمعقول ٠٠ ما بغيت ٠٠ زولي ٠٠ سيري بحالك ٠

ـ ما بغيت يا ولد الحرام ! ٠٠ القحبة أمك ٠٠ لقيت غيرنا ٠٠ ونحنا نلقى غيرك ٠٠ والحلوف ٠٠ والمخار(٤) ٠٠٠

اجواء البيت صامتة ٠٠ والشبح ما زال ماثلا ٠٠ هـل أسألها ٠٠ سأنتظر حتى تفيق ٠٠ اشعل سيجارته بجوار النافذة ٠٠ فيسحقها تحت قدميه ٠٠ تناول القارورة مـن حقيبته المغلقة ٠٠ ملأ الكأس ، وشرب حتى الثمالة ، وصرخ٠٠ حتى القدح لم يسعفني في البحث عن مصيري ، ومصير والدي، ويضرب الكأس بالجدار ، فيخرج الصوت مدويا ، وتقفز الام من فراشها ٠٠ ماذا دهاك في هذه الساعة من الليل ؟

ـ ماذا دهاني ؟ ! ٠٠ اخبريني عن أبي كيف كان ؟ ٠٠ عن طفولتي ؟ ٠٠ حتى أعرف طريقي ، وكيف أعيش ؟ وكيف انتهي ٠

ـ الجواب يا احمد يطول ٠٠ ايه ٠٠ والدك كان لـه أشباه ٠٠ هنالك (بو علام) ٠٠ اذهب الى الغابة واجلس حيث تصل النهر ٠٠ انظر الى التيار ٠٠٠

تلاشى النوم من اجفانه ٠٠ بقي جالسا عند النافذة ٠٠ رأى (أبو علام) يصرخ من أثر الكحول وتعميرته بيده عند ناصية الشارع ، فتختلط على الشاب لحظاته برواجع ايامه ٠٠ يتخيل والده الذي كان مثل كومة رمل في صحاري افريقيا افنتها الرياح فلم يبق منها سوى الغبار ٠٠ يتصوره لحظة

---

(١) الخاص بالشاي ٠ (٢) مشغول ٠ (٣) كلامك ٠ (٤) يا لص ٠

احتضاره بين أشرعة الضباب فيحس بالحيف ، ويتراءى الشاب لنفسه كمن يشق طريقه وسط مجاهل أدغال موحشة، احس بلسعة حادة تغزوه من كل جوانبه ٠٠ فيغمض عينيه ٠

وعلى ضوء الفجر شاهد حمولة النهر ٠٠ الحصى الذي أسلم نفسه لنزوات التيار يهتز ، ويتلاطم حتى أصبح ضئيلا والحجارة ذات الوزن تقارع التيار بأطرافهـــا البارزة ٠٠ استهواه النهر حتى رأى صورته في القاع ٠٠ فيبتسم ، ويأخذ نفسا عميقا ٠٠ آه ٠٠ انها ما زالت تنتظرني ٠

السيارة واسعة ٠٠ تعكس اشعة الشمس ، وتجد في السير فتعدو بين منعطفات الجبل كل أحد ، الايام هي أواخر ابريل ، وصخور الاطلس لا تعرى ، في مثل ايام مايو وابريل ، وشذى الشقائق والخزامى يختلط بالشيح ، والزعتر ، وعناصر الغابة فيشبع الانفاس ٠

يجلسون ذات اصيل على السفح تحت شجرة مطاط ضخمة عند نبع بين أشجار الآرغان المرصعة بحبوب صفراء لامعة صلبة ، فيقابلون البحر او يطلون عليه ٠٠ فتصلهم رائحته ، وتفاجىء أم مليكة من حولها وهي ساهمة باتجاه الغرب ٠٠ انها المرة الاولى التي ارى فيها دنيا البحر ، ويضحك الجميع فيرد عليها عزيز :

ـ نحن اكتشفناه قبلك ٠

ـ أما أنا فأكتشفه اليوم ، منذ رحلاتي البعيدة ٠٠٠

ـ وهل منظره جذاب ؟

ـ نعم يا عزيز ٠٠ الزرقة ، والسفن وبقايا السحب ٠٠ كلها اشياء حلوة ٠

- ثم ماذا .. ؟ .

- ثم البحارة وهـم يتحدون الامواج ، والتيـار بمجاذيفهم .

يبقى الجميع يراقبون الطبيعة الحالمة وربيعها الخلاق ، وحركة الشواطىء واضواء السفن وقت لغروب .. هـذا مركب يغادر المرسى ، وتلك سفينة تطلق زامورها ، واخرى تبحث لها عن مكان عند الرصيف ، وذاك زورق قادم من بعيد وبحارته على جوانبه .. فلجة البحر عامرة ، ولكن على بعد عدة كيلومترات .

- ١٩ -

تمضي الام جزءا من وقتها بمداعبة اطفال ابنتها ، و تنظيم النول لعمل زربيه .. يأنس بها الجميع ، وتأنس بهم .. يتكلمون عن العصر الذي تغير ، وعن التجارب ، وعن المستقبل وكيف يكون ، ولكن الايام تمر فتتراكم ...

. آه .. لقد وصلت عمرا غير قليل ، فهل الكبر بدأ يقترب .. انني احس بلهب الحريق يأكل صدري ، فهل هو الالم ، ام هي بوادر الشيخوخة ؟ .. ولكنني سأبدأ به حتى لا يعود للتردد والغياب وسط التيه .. لا أتمنى له الرجوع الى حياة مترعة بالاسى ، والضياع ، ولا للأحلام المزعجة ان تأتي .

وتشد على الجميع بكلامها ليسرعوا فيعدوا ما يجب فتنشط الام رغم احساسها بالالم الذي تفشى في عظامها فكأنها تهزأ به وتتحدى نتائجه ، وينتهي الصيف فيليه عام المزارعين ، ويبتسم الجميع ، وتهنأ الوالدة ، وتلتقي المشاعر الدافقة في أمل وحبور .

سبعون يوما بعد انتهاء فصل الزواج ·· فتظهر علائم ما يؤرق شخصها ، فيبدو الجسد الذي أهملته مدة غير قصيرة كأنه مخدر ، وكأن الغصن الوريق راح يذبل ، وينحني ثم يجف في ربيعه ·

يسأل الطبيب منذ متى ·· ؟ فيرد عليه احمد ·· منذ عدة ايام ، يقلب الطبيب صدر المريضة بسماعته ، ويهز رأسه ، فيهمس باذن الابن ·· انها مريضة بالرئة منذ شهور وهي على ما يبدو تصارع المرض بقوة وربما انتهى الأمل هذه الساعة ·

تدور الأبصار ·· تنظر الام الى النافذة فترى زجاجة زيت آرغان على الحافة فتتخيل مهدها الاول فتبتسم بارتخاء ثم تنكمش حتى تصل محكمة التوثيق ···

يتلاشى اسبوع والنظرات حائرة مترددة ·· وترجع الى وعيها ، وتتحرك بعزم ، وتتكلم بصوت خفيف منبعث كرجع صدى من قيعان بئر ضخم ، تنظر الى احمد ، وتحدجه بنظرة صارمة فتلتفت الى خديجة ، وتكرر النظرات ، وترمق مليكة ثم تنتقل بهدوء الى عزيز ·

تسكت ·· والجميع في وجوم ، وتستعيد صوتها فتتجه لوحيدتها ببصرها ·· فتنهال مليكة على الجبين اللين المعروق فتغرس شفتيها فيه ، وبعد قليل تمسح الأم وجهها فتنفرج الشفاه ·· ربما شعرت ام مليكة بتحسن فلن يستمر المرض طويلا ·

نظرت اليهم جميعا وكأنها تريد ان تجتث بقايا وشاح الحزن الغامر ·· يقترب منها ·· فيحس بصوتها الحار يلفح وجهه ويتحدث ·· كأنني أرى حياتك يا والدتي منذ

خمسين عاما كنبتة صبار تعيش بلا مطر في القفر الواسع فتمر عليها رياح الشرقي السافية لتطمر ساقها ، ولكنهــا تنتج الثمر في النهاية ·· أتدري ما هو الثمر يا أماه ؟ فلا تجيب ويرد الرجل على نفسه ·

ويشرق وجه الأم الساكن ·· ذابت على عناصره ابتسامة الزمن وازداد بياض الوجنتين الغائرتين ·· وأسبلت عــلى العينين أطراف جفنيهما وكأنها شعرت بنفحات برد اليقين فوثقت من الختام رغم أهداب الليــل ·· وبقي الجسد الساجي ·

كان الليل في هزيعه الاخير صحوا ، وكان القمر وسط قليل من نديف الغيوم المتباعدة متدثرا بفيصل هالته ·· يخطو في سمائه ، ويميل في طريقه بعيدا نحو الغروب ·· ثم يمشي فيتوارى من وراء الحجاب ·

ربع عام يمر على الجميع فتأخذهم الطريــق ليحطموا اسوار عزلتهم ، فيعرجوا بسيارتهم على السفح ·· وفي نفس المكان ، قبالة البحر ، وعلى رأس المنبع في غابة الآرغان ، وتحت شجرة المطاط ·· فتعود بهم الذكرى الى رحلــة الطائر الأفاق ·· الأصداء باقية ، والطيف يملأ أرجــاء المكان ·· يخفق في الأنسام ·· يصل الى المــدى الغربــي الأزرق ·· فيقف عند تخوم البحر ·

يرجع الجميع بعد نصف ساعة فهواء تيار الجزر الغربية يأتي رطبا باردا ، ويد الخريف المرتعشة تجرد الأغصان ·· فتسقط الاوراق لتزيد الخصب مع الشتاء ·· وتستيقظ البراعم ، وتنمو الشقائق ، ·· وتورق الكروم من جديد ·

هذه القصة الجميلة المؤثرة « شجرة الآرغان » ، التي استطاع الاستاذ القوابعة ان يتصرف بشخوصها تصرف المصور القدير فأوجدهم على ما رسم لهم ، وساقهم في أحداث القصة كل شخصية منهم الى طيتها لترسم ناحية من مجتمع الواحة السعيدة ، وتتعاون جميعها على تصوير المجتمع الآخذ في التطور ، فوفق توفيقا يحمد عليه . وصاغها بأسلوب سهل مبسط لا ينحدر الى الانحلال على أنه قوي متين لا يشينه تقعير ولا تعاظل فهو وسط بينهما من النمط الذي يقال فيه « سهل ممتنع » .

الدكتور ممدوح حقي

تطلب من مكتبة المحتسب ـ عمان : الاردن
ومن مكتبات أقليم أغادير ـ المغرب : الاقصى

جمعية عمال المطابع التعاونية ـ عمان